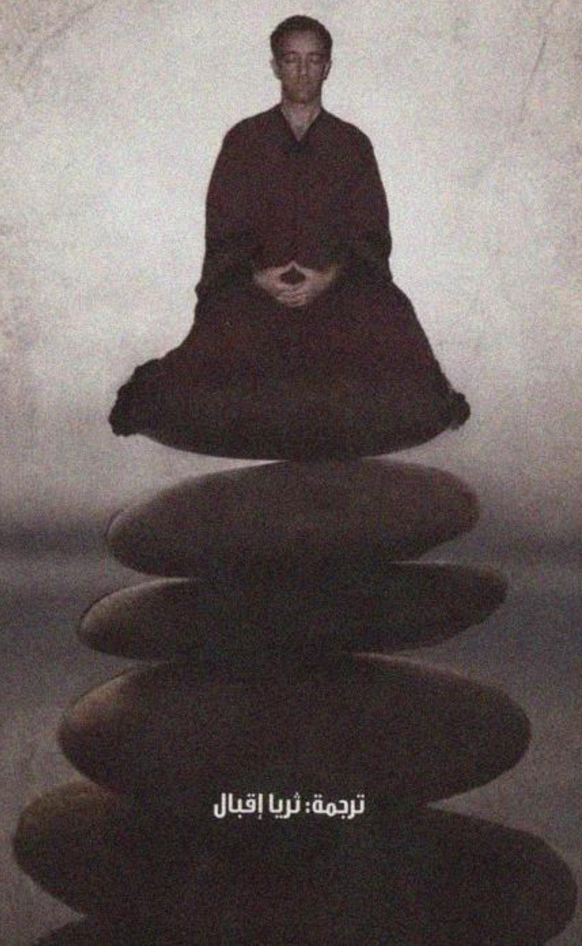
فلسفة الزِّن

رحلة في عالم الحكمة

جان لوك تولا-بريس



ترجمة: ثريا إقبال

فلسفة الـــزِّنْ

رحلة في عالم الحكمة

جان لوك تولا– بريس

ترجمـــة: ثريـــا إقبـــال

مراجعة: د. فريد الزاهي

الطبعة الأولى 1432هـ 2011م

BQ9268.3 .T72312 2011
Toula-Breysse, Jean-Luc
[Le zen]

فلسفة الزن : رحلة في عالم الحكمة / جان لوك تولا-بريس : ترجمة ثريا إقبال : مراجعة فريد الزاهي.

– ط. 1.– أبوظبي : هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2011.

ص157 : 13.5×19 سم.

ترجمة كتاب : Le zen

تدمك: 978-9948-01-849-0

1. بوذية الزن. أ. إقبال، ثريا. ب. زاهي، فريد. ج.العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:
Jean-Luc Toula-Breysse
Le zen

كلمة
KALIMA
www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
www.adach.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 059 6336 2 971+

فلسفة الـــزّنْ

رحلة في عالم الحكمَة

الفهرس

مقدمة

«الزّنْ» كما يراه الغرب

أضحت كلمة «زِنْ» اليابانية اليوم جزءاً من اللغة الغربية الشائعة. فبعد تحويلها من معناها الأصلي وإفراغها من جوهرها، صارت تستعمل كمرادف لعبارتي «كول» (COOL) أو«ريلاكس» (RELAX)، شائعتي الاستعمال في السبعينيات والثمانينيات، لتصبح مصطلحاً متداولاً لدى المعلنين الذين يستخدمونه في شعاراتهم لبيع سيارة أو خدمة بنكية أو جهاز راديو أو أداة تجميل. كما أن وسائل الإعلام أيضاً صارت تتماشى مع موجة «الموقف الزن» كظاهرة شملت زوايا الأزياء والتصميم (الديزاين) والمطبخ. وهذا ما يمثل تفسيراً خاطئاً بالمطلق لهذه الحكمة الشرقية التجريبية اللامفاهيمية التي تنبني على نظام صارم للجسد والعقل، و تكشف للكائن بوضوح عن جوهر ذاته.

ومصطلح الزن يعني التأمل والتبصر. وإذا كان أصل مدرسة الزن هندياً، فإنها تحت مسميات عديدة ترسخت في التبت والفيتنام والصين وكوريا قبل أن تنشأ وتزدهر في اليابان. ولقد أعطى الأرخبيل للزن زخْماً لم يسبق له مثيل، كما أن روح اليابان أفصحت من خلال منظور الفنانين وعلماء الجمال عن الروعة المحيِّرة للزّن. إن هذه الممارسة البوذية الماهايانية تدعو إلى الوعي بالذات بوصفها بوذا من خلال

التعليم والتلقين، عبر ما وراء الكلمات، من الشيخ إلى المريد، من «قلبي إلى قلبك» كما عبر الحكماء المربون عن ذلك . أهي نظرة أصلية للعالم أم هو تأمل يبلغ مداه؟ كيفما كان الأمر فإن تجربة الزن، رغم مفارقاتها وتعقيدها، لا تحمل أي غموض. إن طريقة (دو) تبدأ من حيث نكون.

التأمل مع البقاء على أرض الواقع، التركيز على المسار، عدم المقابلة بين الخير والشر وبين المبتذل والرفيع، تفضيل «مديح البساطة»، هذه القيم كلها تحفز على الإدراك الفطري للعالم.

وحدها معرفة النفس يمكن أن تؤدي إلى السلام الداخلي. من منظور نقدي، تعلِّم منهجية الزّن الممارسين احترام الطبيعة والكائنات الحية والتحرر من المادة والتخلي عن الرغبات والنجاح، وعدم الإعجاب بالاعتراف الاجتماعي، والتجرّد من الادعاءات النرجسية. يفيد المذهب البوذي أن الحياة نهر مضطرب تجرف مياهه العكرة مزيجاً من العواطف والأوهام والجهالة. لكن يجب توخي الحذر، إذ لا يكفي التخلي عما هو زائف لإدراك ما هو صحيح؛ فالتحرر من الأفكار الخاطئة لا يؤدي بالضرورة إلى الفهم الصحيح، وحتى إذا كان الأمر كذلك، فالإيمان به يصبح نتاج وهم جديد.

لا يعير الزن قيمة كبرى للكلمة المكتوبة (ولا حتى للصمت من أجل الصمت)، فورثة تراث الزّن يمتنعون عن شرح جوهر الطريق. ها هو

الشيخ «نان–إن» الياباني الذي عاش في العصر الماجي (1868 – 1912) يستقبل أستاذاً بارزاً من جامعة طوكيو، فإذا به يصب الشاي في كأس ضيفه دون انقطاع، فلم يتمالك هذا الأخير نفسه من الصراخ: «إن الكأس امتلأ حتى فاض»، عندئذ أجاب الشيخ: « لا يمكنني ملء إلا ما هو فارغ لا ما هو مملوء. وأنت، مثل هذا الكأس، ممتلئ بآرائك الخاصة، فكيف يمكنني أن أشرح لك ما هو الزن» ؟ لذلك، ما دام العقل مستبداً، فإن الصحوة مستحيلة. يقول الراهب «دوجين»: إن دراسة طريق بوذا هي دراسة الإنسان لنفسه، ودراسة الإنسان لنفسه هي نسيان الإنسان لنفسه.

في بداية القرن السابع عشر، طرح الكاتب المسرحي الإليزابيثي وليام شكسبير سؤالاً تأمليا حول الحياة والموت على هامليت أمير مملكة الدانمرك: «أن تكون أو لا تكون...».على الجانب الآخر من أوراسيا، أجاب الرجال والنساء الذين يمارسون الزن ويدحضون كل ثنائية، بدون تردد أنه ينبغي: «أن تكون وأن لا تكون ».

الفصـــل الأول
أصـــول «الزّنْ» البوذيـة

I – البـوذا التاريخـي

تعتبر مدرسة الزن التأملية استمرارية لتعاليم بوذا غوتاما، ذلك الكائن التاريخي الذي تحيطه مجموعة من الأساطير والعجائب. ولد سيدهارتا غوتاما الذي يدعى أيضاً ساكيا موني، حكيم عشيرة ساكيا، في منتصف القرن السادس قبل الميلاد في مملكة صغيرة في سفوح جبال الهمالايا بالشمال الشرقي من الهند، في قلب حدائق لومبيني، بالقرب من مدينة كابيلافستو التي توجد الآن في منطقة تيراي بالنيبال. ترعرع الأمير الشاب، ابن الملكة مايا ورئيس عشيرة ساكيا سودهودنا – ومن ثم اسم ساكياموني– في لامبالاة الأطفال. وذات يوم اكتشف سيدهارتا (وهذا الاسم يعني: الذي يحقق الهدف) وهو في سن الرشد ، خلال نزهة خارج القصر الأسري، بمرأى عجوز مسن ومريض وجثة ميت، أن الشيخوخة والمرض والموت حالات تلازم الحياة اليومية لكل إنسان. في سن التاسعة والعشرين تخلى عن كل ممتلكاته رغم أنه كان متزوجاً بالأميرة ياشودارا وأباً لطفل يدعى رحولا سيصبح من أتباعه. وعياً منه بعدم استقرار الأمور، هجر الحياة الدنيا وانخرط في طريق الزهد

شديد القسوة. لكن، بعدما ألزم نفسه بالقهر وإماتة النفس، أدرك أن حياة الناسك المفعمة بالحرمان الشديد والصوم ليست أفضل من حياة المباهج والملذات، وأن هذا السلوك يضاهي سلوك العاطلين أو ذوي النفوذ غروراً وبطلاناً. و بعد عدة سنوات من البحث، اختار طريق ما يسمى بمقام الاعتدال. في بوذ غايا إحدى قرى بيهار، بعد تصديه لبراثن القوى المعتمة التي تجسدها مارا (روح الشر والموت) وتخلصه من كل نزعة سلبية، توصّل غوتاما إلى إدراك فطري للحقيقة. تحت شجرة تين، توصل بعد سبعة أيام إلى الصحوة (بوذي) التي جعلت منه بوذا، وهو ما يعني حرفياً (الصاحي).

ليس بوذا نبياً ولا ابن الله، بل مجرد رجل بين الرجال، وهكذا توصل إلى الهدف الأسمى في سعيه من خلال التأمل، ومن يومها إلى وفاته عن عمر يناهز 80 سنة في كوزكانال، شمال غرب باتنا، ما برح « يتغلب على أهوائه» ويُعلِّم أن قوى الحب والتآزر والتسامح تُمكِّن من اتباع طريق المعرفة وبالتالي التخلص من الألم.

نشأ بوذا في قرن فلسفي عاصر فيه كلاً من كونفوشيوس ولاوتسو و هيراقليطس وفيتاغورس وزرادشت. لذلك لم يحِد عن وقته ولا عن السياق الروحي للحضارة البوذية. في هذا الفكر السابق للبوذية، كان الإنسان يخضع إلى قوانين كونية تمتثل لها الآلهة نفسها، وكانت هذه

الأخيرة هائلة العدد تنحدر من أسر ومجموعات تراتبية و تتقاسم العالم بينها وقتئذ، وقد يصل عددها إلى 33 مليون إله، دون عدّ العباقرة، والحوريات السماوية وكذا الخدام المخلصين المرافقين لها. ترجع أصول هذا الفيض الروحاني إلى فجر التاريخ؛ إذ كانت هناك العقيدة الفيدية قبل البراهمانية. ولقد وضع هذا الفكر الديني الذي تأسس على الفيدا، وهي مجموعة من النصوص المقدسة المؤلفة باللغة السنسكريتية، مبدأ الواحد الأعلى. كانت معظم الآلهة الفيدية تمثل قوى الطبيعة.

في هذا السياق ظهرت الأوبانيشاد (Upanishads) وهي نصوص مكتوبة أيضاً باللغة السنسكريتية حوالي 800 عام قبل الميلاد كردّ فعل على الشكليات الطقوسية الفيدية لاسيما المراسم المعقدة للأضحيات والهبات. ويستند هذا المذهب إلى مفاهيم البراهما ومنها المبدأ المطلق والطاقة الكونية الموضوعية التي تؤثر في كل شيء وعلى «الأتمان» أي النفس المادي. أو مبدأ «الهو» الدائم الذي يُعتبَر من نفس ماهية الذات الكلية. وهذا التيار يتميز بالمعرفة والتأمل استناداً إلى مفهوم التلقين من الشيخ إلى المريد.

في عصر بوذا، عرفت الهند نشاطاً دينياً مهماً استمد حيويته من غليان فكري حقيقي كان مصدراً لتحولات كبرى. هكذا تخلى العديد من الحكماء الذين يحثون على الخلاص عن ترانيم الفيدا المقدسة وعن

الأحدية البراهمية، كما أن بعض العلماء الروحانيين المخيَّبين سلكوا طريق الزهد بينما أقلع بعض المتمردين ذوي الطقوس النخبوية من أعضاء الطبقة الكهنوتية (البراهمان) عن القواعد وتحرّروا من العقائد ليعيشوا حياة الرهبان التائهين، وكل هؤلاء بهدف وحيد هو الخلاص.

1. تعاليمه

لم يترك لنا غوتاما حكيم الهند القديمة ولا أتباعه الأقرباء أي شيء مكتوب. لذا لم نتعرف على تعاليم بوذا إلا عبر نصوص عقدية حررت بعد قرون من وفاته وتضمنت كلامه الذي بقي معروفاً عن طريق التلقين الشفهي. وبما أن تَوجُّه بوذا يمكن اعتباره علاجياً أكثر منه غيبياً فإنه اقترح وسيلة للمعرفة الغرض منها التحرر من الأوهام. فالتجربة الشخصية وحدها تمكِّن من إدراك قانون الوجود أو ما اصطُلح عليه بكلمة دراما باللغة السنسكريتية. يستند المذهب البوذي على افتراض اختزله مؤسسه في عبارة : «لا أعلم إلا شيئاً واحداً، أيها المريدون، المعاناة والخلاص من المعاناة».

2. الحقائق النبيلة الأربع

وهي تعبر عن جوهر البوذية. إن هذه التعاليم الأساسية التي بلغها بوذا في خطبته الأولى في سارنات بحديقة الغزلان شمال بيناريس

طرحت مفهوم حقيقة الألم وحقيقة أصل الألم، ثم حقيقة وقف الألم وحقيقة الطريق المؤدي لوقف الألم. وتمثل هذه الحقائق النبيلة الأربع الشروع في تحريك عجلة القانون.

* **الحقيقة النبيلة الأولى**: وتتعلق باستعداد كل واحد للإحساس بالألم والمعاناة وكل «ما هو مزعج»، بكل ما تسعه الكلمة من معاني ممكنة («دوخها» باللغة السنسكريتية). ينبني أساس هذا المذهب على الوعي بأن الوجود على هذه الأرض رهين بالمعاناة. ولا أحد ينجو من هذا القانون، فالولادة والشيخوخة ثم المرض فالموت مراحل تشكل حتماً كل حياة. كما أن الفرح مهما عظم لا يدوم، ولحظات السعادة منتهية لا محالة واحتمال الألم يكدر أفضل اللحظات.

في زوبعة البشرية التي لا تهدأ يساهم الطابع الزائل للحياة ونواقص الأشياء في اضطراب الفكر الإنساني. ينتج الألم عن مجموعة من الأسباب ولا يجب اعتباره مبدأ مطلقاً ومحدَّداً سلفاً. وتنجم مصائرنا عن عوامل يتعيَّن على كل كائن البحث عنها في أفعاله الماضية والحاضرة كما في حيواته السابقة. كل إنسان نتاج أعماله ولا يمكنه (رغم حفاظه على حرية الإرادة)، أن يتملّص من ذلك (أن ينجو ويفلت ويتخلص ويتحرّر)، فكل فعل إيجابياً كان أم سلبياً، يؤدي في لحظة أو أخرى إلى عواقب تؤثر على حياة فاعله.

وقانون الفعل الذي يسمى «كرما»، يعني العلاقة بين السبب والنتيجة وليس بتاتاً القدر. لدى البوذيين، تخضع الرغبة والتعطش للوجود عند الإنسان لدورة ولادات متجددة (سامسارا) وإلى فيض كَرمي طالما بقي حبيس الأوهام. وهذه الدورة اللانهائية تحوم بلا توقف في بحر من الغموض ، وتجرف كمية من البؤس والفوضى، و تشكل مصادر الألم. أما الغاية الكبرى فهي التخلص من هذه البلبلة والتوصل إلى «النيرْفانا» وهي حالة الفراغ القصوى وإفناء الرغبات وأسبابها، كما أنها ليست وجوداً ولا لاوجوداً في الوقت نفسه. والكرما وسامسارا كلاهما مفهومان مشتركان بين كل الروحانيات الهندية الكبرى سواء البوذية أوالبراهمية أو الفيدية. وهذه الحقيقة النبيلة الأولى التي تتحقق خارج قبضة الانفعالات من شأنها أن تشجع كل كائن أن يرعى طبيعة بوذا فيه وبالتالي أن يتبع نهج حياة وسلوكاً متحرراً من القلق والاضطراب.

* **الحقيقة النبيلة الثانية:** وتعبر عن أصل الألم. إن الرغبة والجهل هما سببا التعلق بالدنيا وبالمعاناة. وللقضاء على جذور الألم يجب محاربة غيوم الجهل، ولكن ما الجهل بالتحديد؟ كان غوتاما يقول في وعضه: «أن لا تعرف الألم، أيها الصديق، أن لا تعرف القضاء على الألم، أن لا تعرف الطريق المؤدي إلى القضاء على الألم، هو ذا يا صديقي، ما يسمى بالجهل». الجهل إذن عند البوذيين هو الجهل بالمبادئ النبيلة الأربعة.

كما أن أصل المعاناة لديهم يرجع إلى الوهم الذي يقضي على السكينة الداخلية والسلام الذهني، وهذه الحقيقة النبيلة تُعلِّم أن الجشع وحب النفوذ وقلة السيطرة على النفس والمتعة الجنسية والخوف من الموت ورفض قانون الكَرْما هي السبب في العذاب والرعب كله.

الحياة تمضي حتماً ولا أحد يستطيع فرض إرادته على مجرى الوجود المتقلب، لا شيء يدوم، ولا شيء يستمر، ولا شيء يبقى إلى ما لا نهاية. الكل يتحول ليؤول إلى الهلاك يوماً ما.

وقتية الأشياء وتقلبات الوقت الدائمة تميز شرط حياتنا الزائلة. يصف التراث البوذي في الديوان الثالث للقانون البوذي البالي (أبدهيدها) أن الإنسان مكوَّن من خمسة عناصر مؤتلفة وهي الجسد والأحاسيس، والتصورات وإدراك الصور، والتشكيلات الذهنية، والبنيات النفسية، والوعي. وكل المكونات التي تؤلف الكائن البشري تخضع هي الأخرى إلى تغيير مستمر.

وهكذا يبلور الوجود عدداً من الظواهر المستقلة التي لا تعرف الجمود ولا الدوام. جاء في النص المؤسس للشان الصيني الشين جين مي: «إن الواحد نفسه هو كل الأشياء والأشياء كلها هي الواحد». من ثَمَّ فالايمان بدوام الكائن وهْمٌ بما فيه دوام الروح الإنسانية.

«النفس» أو «الأنا» ما هي إلا تجميع مركب لعناصر متقلبة، يقول

أحد شيوخ البوذية: «أنت لست الطفل الذي كنته ولا العجوز الذي ستكونه». ونفي «الأنا الدائمة» لا يعني عدم وجود «الأنا»، فالمذهب البوذي يدحض الأنا الثابتة، وهذا ما يميزه ويجعله يحيد في هذه النقطة عن المفهوم البراهماني الذي يعتبر الروح ذاتا دائمة من ماهية الذات الكلية نفسها. إن نظرية عدم دوام النفس الواعية ليس الأكثر لفتا للنظر في الفلسفة البوذية فحسب بل هي الأكثر أهمية أخلاقياً أيضاً، وإن لم يتوصل أي مفكر غربي إلى تقديرها حق قدرها.

إن جانباً كبيراً من محنة البشر تنتج بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عن المعتقدات المتناقضة، عن وهم الاستقرار وعن الوهم بأن الفروق في الطباع والشروط والمعتقدات تُحدَّد بموجب قانون ثابت، وكذا عن وهم الروح الثابتة الخالدة الحساسة التي توجهها أهواء إلهية إلى أبديات النعيم أو أبديات الجحيم(1).

***الحقيقة النبيلة الثالثة**: وتتطرق إلى فناء الألم بفناء الرغبة والجهل. محو الرغبة لا يعني قمعها أو كبحها، لأن ذلك يسبب مصدراً آخر للألم حسب البوذيين. للوصول إلى السكينة الثابتة التي ينعم بها الحكماء البوذيون، على شاكلة الأمير سيدارتا، ينبغي التخلص من التصورات الخاطئة والقضاء على التسلط الذهني وإزالة مصادر الانغلاق (من طمع وكره وإثم) وذلك للتحرر من الرغبة والإفلات من الميل المرهِق نحو الخوف

(1) فيليب كورنو، المعجم الموسوعي للبوذية، باريس، السوي. 2001. ص.186.

والشك والمعاناة. إن تغيير العالم يمر بتغيير طبيعة الإنسان الخاصة.

* **الحقيقة النبيلة الرابعة:** تبيّن الطريق المؤدية إلى وقف الألم، وتخلق عملياً نظاماً للحياة وطريقة للعيش والتفكير. ويهدف سبيل الخلاص هذا إلى العبور من عالم الألم إلى النيرفانا. ترتكز هذه الطريقة، باعتبارها علاجاً يقاوم الوهم وعبودية الأهواء، على تغيير جذري للعقلية وتتطلب التوازن الدقيق والتمسك بالأخلاق.

وهذه الحقيقة النبيلة ترشد إلى الطريق الذي يجب سلوكه للتخلص من آلام الحياة البشرية؛ يتعلق الأمر بالمسار الثُماني النبيل[2] والذي يتلخص ببساطة حسب بوذا، فيما يلي: الامتناع عن الإجراءات المؤذية والقيام بالأعمال النافعة وتصفية الروح. هي ذي تعاليم اليقظين المتيقظين، وهذا يتطلب الحذر واليقظة الدائمة والرؤية الاستبطانية الحقيقية وكذا معرفة الآليات النفسية. ويمثل التأمل والانضباط والتربية الأخلاقية (التي تقوم على خمس قواعد أساسية هي: عدم القتل، عدم الاستيلاء على خيرات الآخرين، عدم اتباع أهواء النفس، عدم الكذب، عدم السكر) العناصر الأساسية لهذا التحول الذي لا يمكن فصله عن الممارسة.

إذا صحَّ الوصف، يمكن تشبيه النهج البوذي بأخلاقية حياة وعلم إنساني. أما الرسالة الأصلية والكونية للمذهب فإنها تؤكد على التجربة الفردية والتحقق الذاتي، كان بوذا يوصي أتباعه: « لا تقبل بما يبلغك

(2) فيليب كورنو، المعجم الموسوعي للبوذية، باريس، السوي. 2001. ص.186.

من الآخر، لا تقبل بالتقليد، لا تبادر باستنتاج أن الأمر يجب أن يتخذ هذا المنحى ». إنَّ اتِّباع المذهب احتراماً أو عبادة يخلق التباسات جديدة بعيداً عن تحرر حقيقي للقلب. فكل إنسان خير ملجأ لذاته، لذا لا ينبغي البحث عن مساعدة خارجية. لأن الصعوبة تكمن في التوصل إلى السعي للخلاص واليقظة من داخل الذات في إطار الممارسة اليومية. خلافاً للتقاليد السماوية، فإن البوذية، طريق الحكمة والممارسة، ليست نتاجاً لوحي إلهي وإنما مدرسة للتحرير. فمسألة الألوهة ليست مطروحة كما أن الاعتبارات اللاهوتية تبدو مُستبعَدَة عن قصد.

والبوذية ليست إيمانية ولا إلحادية. كل ينتقي طريقه بخياره الحر، وبما أن كل شيء يُشكَّل ثم يُفكَّك، ويمتد ثم ينتهي، فإن الحكمة تقتضي القَبول بالتغيير. لذلك فإن البوذيين مطالبون بعدم التقيد بما اكتسبوه بالممارسة العملية، وإلا ستصبح هذه الأخيرة مضرة بالتجربة؛ ففي عالم موجود لكنه غير حقيقي، ليستِ الشؤون الدنيوية سوى مجرد أحلام.

II – انتشـار البوذيـة

عندما مات بوذا عرفت الهند الشمالية نشوء عدد كبير من الطوائف، فصار أتباعه المخلصون يحضون على التشبث بمبادئه للوصول إلى اليقظة. وبما أن بوذا لم يعين خليفة بعده، فإن تأويل المواعظ تعدّد بتعدد التقاليد والمعتقدات المحلية. وبما أنه لم يترك أي وثيقة مكتوبة، فإن

تعاليمه انتشرت عبر التلقين الشفوي إلى أن انكب بعض المريدين الثقاة على توثيق كلماته. وترجع النصوص الأولى إلى أول مجمع رأى النور بعد «فناء اليقظ». ولقد عرفت البوذية في فترة انتشارها تطوراً كبيراً وانقسمت إلى ثلاثة تيارات أو مركبات (يانا).

1- الهينايانا LE HINAYANA

أخذت الهينايانا أو «المركبة الصغرى» هذه التسمية بعد نشوء الماهايانا، وتمثل المذهب الأصلي الذي بشَّر به بوذا ونقلته كتب ثيباكا البوذية المقدسة (أو ما يسمى بالملة الثلاثية). ولقد استغرق رهبان سيلان عدة قرون لتحرير هذه المجاميع الثلاثة. والتاريخ المسلم به هو سنة 89 قبل الميلاد. أما اللغة التي كتبت بها فهي «البالي» التي تعني حرفيا «الخط» أو «الشكل». وتشكل هذه المجاميع القانون البوذي الترافالدي. تضم الملة الأولى (بتوتا بيكاتا) خمسة مجاميع لخطب ومواعظ بوذا والأحاديث المنسوبة إلى تلاميذه المقربين. وتمثل هذه المدونة نصوص قانون (سوترا) وهي قلب المذهب. أما الملة الثانية (فينايا بيكاتا) فتتعلق بالتربية، وتشمل كل الأحكام الرهبانية التي توصي بالسلوك الذي يجب اتباعه والنواقص التي يستَحَبُّ تجنبها. ثم الملة الثالثة، الأبذهيذها بكاتا المتعلقة بالفلسفة المدرسية التي تحصي، في سبعة كتب، على شكل سلسلة من الأسئلة والأجوبة، الظواهر المعروضة في قوانين سوترا. وهذه المقالات تعمق

منهجياً وتفصيلياً العناصر التقنية للقانون البوذي. في نظر الهيانيين، كل يعمل لنفسه وينعم بنتاج أفعاله، لذلك فهم يدعون إلى التقيُّد الصارم بأدب الزّهد ويتشبثون جوهرياً بالأخلاق وإدراك الفراغ ، هدفهم الأسمى هو التوصل إلى حالة أرهات التي تعني حرفيا «المستحق الذي تغلب على أهوائه»، أو ما يطلق عليه عموماً «قاهر العدو»،الذي يسعى إلى الوصول إلى النيرفانا (السعادة القصوى) عبر ذاته. وبما أنهم يركزون على المجتمع الديني، فإن الراهب المنظّم يعتبر أكثر مدعاة للتقدير والاحترام من أي شخص علماني، لأن الحياة الرهبانية وحدها تستوفي الشروط التي تؤدي للوصول إلى الهدف الأسمى وهو الفناء التام. عرفت الهينايانا التي تدعى أيضاً بالبوذية الجنوبية، انتشاراً واسعاً في جنوب شرق آسيا، انطلاقاً من سيلان مهد الأورتدوكسية والقلب النابض للتيرافادا عبر الطرق البحرية التجارية.

ويفضل أتباع هذه الحركة على الهينايانا مصطلح التيرافادا الذي يعني «مذهب القدامى».

2-الماهيـانـا LE MAHAYANA

الماهيـانـا أو المركبة الكبرى: تيار إصلاحي ظهر في الهند في بداية العصر المسيحي، وهو يركز على المودة والرحمة. يعتبر الماهيانا أن خلاص البشرية يعلو على الخلاص الفردي بحجة أن السعادة الفردية

ليست غاية في حد ذاتها. ويتميز هذا التيار ببُعده الإيثاري وغير التحيُّزي الذي يحث على العطف على الآخرين؛ فكل إنسان يمكنه أن يكون بوذيساتفا لأن كل إنسان بوذا بالقوة. وإذا كان نعت بوذا يعني في البوذية المبكرة سيدهارتا غوتاما فقط وبوذيساتفا البوذا قبل اليقظة، فإن البوذا التاريخي في الماهيانا قد سُبِق ببوذوات آخرين وسيُتبع ببوذوات آخرين. أما بوذيساتفا فقد تخلى على النيرفانا (السعادة القصوى)، إثر وصوله إلى الصحوة، ليكرس نفسه لصالح الآخرين. يهدف المثل الأعلى لبوذيساتفا إلى تخليص كل الكائنات الحساسة، «أعضاء هذا الجسد الكبير المؤلف من جماعة الكائنات التي تعاني». إن قوة مفعول الحِلم تبرر وجوده، لهذا فإنه يُعنى بصور الكمال الست أو الفضائل (بارامیتا باللغة السنسكريتية) التي هي: الكرم والأخلاق والصبر والطاقة والتأمل والحكمة. وقد سادت الماهيانا في الجانب الآخر للهملايا من الصين و كوريا واليابان.

3- الفجريـــانـــا

الفجريانـا أو «مركبة الماس»: هو فرع باطني من المدرسة الماهيانية، تأسس ابتداء من القرن الثامن على ممارسات تعطي أهمية كبرى للطقوس السحرية ولسيادة الشيخ المربي. استمد الفجريانـا من اليوغا أهم التمارين الذهنية والجسدية التي تمكن من التقدم الروحي. ويعتمد

الفجريانا على تلاوة المانيرا manira (وهي ترانيم روحية) وعلى السلوك الايمائي لمودرا mudra (وهي جلسات تطابق موقفاً ذهنياً)، وعلى العرض العياني للمندلا mandala (وهو رسم بياني يُستخدم كركيزة للتأمل).

ويسمى الفجريانا أيضاً التانترية tantrisme لأن تعاليمه وثقت في مجموعة من النصوص تدعى التانترا tantra. وهو التيار الأكثر انتشاراً في منغوليا والتبت وممالك جبال الهملايا ولكن أيضاً في اليابان مع طائفة الشنغون shingone. ومن بين هذه المركبات الثلاث، ينتمي الزن إلى التقليد البوذي الماهياني.

الفصـــل الثانـــي
نشـــأة «الزّنْ» وانتشـــاره

الزن يعني باليابانية التأمل، وهو اختصار لـ(زينا) بنقل الحروف الصوتية لكلمة (ذيانا) من اللغة السنسكريتية. ويسمى الزن «سامتين» باللغة التبتية و«تين» بالفيتنامية و«شان» بالصينية و«صون» بالكورية. ولقد تم الاحتفاظ باسم (زن) خاصة في الغرب لأن اليابان أصبحت الأرض المختارة لهذه المدرسة التأملية، التي لا تنتمي أصلاً لأي نص محدد وليست حكراً على الأرخبيل الياباني.

I- «زهـــرة وابتسامـــة»

لعل أصل الزن يرجع إلى بوذا نفسه، حسب ما ورد عن أتباع شان الصينيين في بداية القرن الحادي عشر، أثناء درس ألقاه أمام تجمع من الرهبان والراهبات والعلمانيين، أخذ بوذا زهرة في يديه وأظهرها بصمت للعيان قبل أن يقدمها للسماء. دهش الحاضرون من هذا الفعل المفاجئ وبقوا في حيرة تامة، لكن أحد أتباعه، ويدعى كاشيابا، فهم وابتسم. ثم قال بوذا بصوت مؤثر: «إني أملك عين كنز الذارْما الحقيقي، أي النيرفانا الفائقة الرفيعة التي تفتح باب الرؤية الحرة والتي لا تتوقف على كتابات ولا كلمات بل يتم نقلها خارج أي مذهب.. وهذا

الكنز أعهد به إلى كاشيابا» [...] وما يعنيني هنا هو رمزية مشهد الزهرة حيث يختزل التعاليم الأساسية لسباكياموني الذي خبر وتحقق بنفسه من حالة الصحوة عن طريق التأمل من خلال جلسة اللوتس. وهي حالة من الإشراق الكامل تحصل في النفس بنفس تلقائية تفتح الزهرة[3]. وهكذا تكون تعاليم زن قد انتقلت أول مرة من قبل الحكيم غوتاما إلى كاشيابا الزاهد الملتزم الذي يعتبر بعد بوذا، الأب الثاني لهذه الطريقة المعرفية الفطرية وزعيم المستقبل لتجمع الرهبان والراهبات والعلمانيين الذين يتبعون تعاليم (سانغا). تاريخياً، يعتبر الزن نتاج مسار طويل من الفكر البوذي نحو الشرق الأقصى. وككل المدارس البوذية الأخرى، اغتنى الزن بعناصر خارجية غير الفكر الهندي واستطاع أن يندمج مع الطقوس الدينية الأصلية، وكلما رسا على أرض جديدة، ترسخ كمادة حية خصبة وأنجب براعم روحية جديدة.

II- الشـان الصينـي

لم يكن من الممكن للزن بالشكل الذي هو عليه الآن، أن ينضج في أي مكان آخر خارج الصين. فالهند كانت ميتافيزيقية للغاية وغارقة أكثر من اللازم في الخيال الغيبي الباطني[4].

(3) فيليب كورنو، المعجم الموسوعي للبوذية، باريس، السوي، 2001، ص.186.

(4) فيليب كورنو، المعجم الموسوعي للبوذية، باريس، السوي، 2001، ص.186.

قبل دخول البوذية في الإمبراطورية السماوية، كانت النخبة الثقافية كونفوشيوسية، وكان أغلبية السكان وثنيون أو طاويون. والكونفوشيوسية مذهب فلسفي وعقائدي يحث على الكرامة وطاعة الوالدين والأواصر الأسرية كمثل عليا. كما كان يكن تعلقاً شديداً بالأسلاف. أما قيمه فتسود في الأخلاق، والنظام الاجتماعي وفن الحكم. حسب كونفوشيوس (551 – 497 قبل الميلاد)، مؤسس هذا الفكر الشهير، ليست الولادة شيئاً حيث لا تكون الفضيلة. لذلك فهو يؤكد على ضرورة تعلم الاستقامة والصدق.

ولقد شكلت البوذية، التي تجعل من التعليم أولويةً، الطابع الصيني وأثرت على النهج المجتمعي للبلدان المجاورة. أما الطاوية، فهي تيار فلسفي آخر يسعى من جانبه إلى الانسجام بين طاقتين مضادتين، الين le yin (المؤنث) واليان le yan (المذكر). في الطاو «المسير»، تعتبر الطريق مصدر كل حياة وكل صورة حسب التقاليد الصينية، وتعطي الأولوية للعمل الداخلي والإنصات إلى الطبيعة الباطنية.

يُعدُّ لاوتسو، ويعني حرفياً «الشيخ القديم» (570 – 490 قبل الميلاد) مؤسس هذا التيار الافتراضي حرفياً «الشيخ القديم» لكن عدداً من المؤرخين يشكون في وجوده. وهذه الطريقة الصوفية الروحية السحرية يمكن أن تشمل طقوس طرد الأرواح الشريرة المستمدة من الشامانية

الشعبية، أو أن تتبع بعض الممارسات الباطنية أو حتى الكيميائية التي تهدف إلى التوصل إلى الخلود. إن هذه الطاوية الجديدة تسعى بكل الوسائل للحفاظ على الطاقة الحيوية. ففي حين يميل البوذيون إلى تجاوز الحياة، فإن الطاويين يبحثون من جانبهم عن الحياة الأبدية، أو عن الأقل على حياة مطولة.

بالرغم من عدم ثبوت زمن معين، اتضح أن تعاليم « الصاحي» اخترقت الصين تحت سلالة «هان» في بداية عصرنا عبر طرق الحرير المتفتحة على أنماط متنوعة. وهذه الطرق الممتدة على طول مناطق سيرينديا الشاسعة شكلت بوتقات هامة للتبادل الفني والروحي. وكان ذلك أول مرة في تاريخ أبناء السماء أن ظهرت روحانية أجنبية متشبعة بروح هندية بفضل مبشرين ومترجمين ينحدرون غالبا من آسيا الوسطى. ولقد قاومت الحضارة الصينية، التي تهيمن عليها الكونفوشيوسية والطاوية، بشدة هذا الفكر الدخيل الآتي من الغرب المتوحش كما أثار الفتح البوذي السلمي معارضة قوية من طرف الكونفوشيوسيين. ولا شك أن مسير تصيين البوذية كان طويلاً. وبلغت البوذية أوجها تحت حكم آل «طانغ» (618 – 907م) بتياريها الأساسيين وهما مدرسة الأرض الخالصة التي لبت حاجة الشعب للتقوى ومدرسة شان البسيطة والصارمة في آن. في هذا السياق التعبدي، يُعتقد وفقاً للأسطورة، أن

إدخال الشان للصين قد تمَّ في القرن السادس من قِبل الراهب الهندي بوذيدهارما، ولقد تطورت وتغيرت هذه المدرسة التأملية باحتضانها منذ البداية مجموعة من العناصر الأساسية للفكر الصيني. وبالتحام مبادئ وممارسات التأمل الإلهي الطاوي والمبادئ الفلسفية الكونفوشيوسية الإصلاحية، نشأ نوع جديد من الفكر سيصبح فيما بعد «الزن» .

عرف الشان انتشاراً واسعاً في الصين ابتداء من القرنين السابع والثامن. وبرحيل البطريرك الخامس، عُهد بتعليم الشان إلى مدرستين: الأولى تسمى مدرسة الجنوب والثانية مدرسة الشمال. تأسست الأولى على يد هوينيغ والثانية على يد زميله شينكسيو (605 — 706). أما مدرسة الجنوب أو مدرسة «الطريق المنحدر» فتؤكد على الطابع الفجائي للصحوة، أما مدرسة الشمال فإنها تستند في تعليمها إلى الصحوة التدريجية والمرحلية، وقد انهارت هذه الأخيرة على الرغم من دعم الإمبراطورية لها. بعد تطور سريع، تم الاعتراف بمدرسة الجنوب كحافظ للمذهب الأصل للشان مع أنها احتضنت بضعة مفاهيم جاءت بها مدرسة الشمال مثل استعمال «الكوآن». وفي صلب التقليد الجنوبي، ظهرت عدة مدارس سميت فيما بعد «بالمنازل الخمسة» وهي: مدرسة فايان (هوغن باليابانية)، مدرسة يونهان (أمون باليابانية)، مدرسة غوينانغ (إغيو باليابانية)، مدرسة لينجي (رينزاي

باليابانية) ومدرسة كاودونغ (سوطو باليابانية). وهاتان المدرستان الأخيرتان هما اللتان استمرتا فقط. رغم حملة القمع التي تعرضت لها البوذية فيما بين سنوات 843 – 845، عرف الشان ازدهاراً تحت سلالة آل سونغ في الشمال (960 – 1127م)، أو في الجنوب (1127 – 1280م). وصار الشان تدريجياً المذهب البوذي الأكثر شعبية، وأصبحت الأديرة الشانية تلعب دوراً هاماً كمراكز ثقافية في ذلك الوقت.

كما أن أتباع مدرسة الشان كانوا يقومون بالتردُّد على شيخ أو عدة شيوخ إما في مقر التجمعات أو في صوامع التعبد وذلك بهدف المذاكرة والسؤال والانخراط في محادثات أحياناً مضحكة لكنها غالباً غامضة تحفز، على حد تعبير الزن، على «الكلمة الحية». وهذا الإجراء ليس لعبة ذهنية في نظر الأتباع بل وسيلة للصحوة الداخلية. وأمام نفوذ نهضة الكونفوشيوسية والطاوية وكذا ظهور البوذية الفجريانية. تراجع الشان بعد الطفرة الكبيرة التي عرفها سابقاً.

منذ بداية القرن العشرين، صارت جميع الممارسات الدينية تشكل للقادة السياسيين الذين توالوا على الحكم عقبة في طريق تحديث البلاد. ومع وصول الريان الأعظم، الذي كان يعتبر التقاليد الروحية الصينية غير منسجمة مع الفكر المادي الماركسي، إلى السلطة، عجَّل بعملية التخلص من الماضي. في أرض «الوثام الأعظم»، استأصلت الكارثة

الإيديولوجية للثورة الثقافية (1966—1976) آثاراً كثيرة للصين القديمة في وحشية سياسية كبيرة. وهكذا فإن أغلبية أماكن العبادة تحولت إلى مستودعات أو مصانع أو قاعات للاجتماعات أو إلى حظائر إن لم يتم التخلص منها، ولم يستثن هذا التطهير الجبار حتى الممارسين، إذ أجبر الرهبان والراهبات على الرجوع إلى الحياة العلمانية.

لكن بعد سنوات الماوية، سمحت سياسة الانفتاح والإصلاحات التي أجريت ابتداء من سنة 1976 من قبل دونغ شياوينغ (1904 — 1977) للمؤمنين بإعادة الصلة مع المقدسات تحت حراسة مشددة. وفي سنة 1982، أعاد دستور جمهورية الصين الشعبية نظام الحرية الدينية تحت مراقبة الدولة، شريطة أن لا يخل الأمر بالنظام العام. وبموافقة حذرة من طرف السلطات المحلية، أخذ مشجعون خارجيون أغلبهم يابانيون إلى جانب مؤمنين صينيين على عاتقهم تمويل إصلاح المعابد والأديرة، وهكذا تم إحياء معبد غابة السرور بإيلان، أحد أهم المراكز الذي شهد ازدهار الشان في مقاطعة هيباي زهاوكسيان. في هذا الإطار، يشاطر راهبون وراهبات أناساً علمانيين جاؤوا للخلوة بأنفسهم لحظات تأمل وتربية يوفرها الحاكم الموقر. وهكذا، ومن وقتها صارت بعض التجمعات تعيد تأويل التقاليد الشانية، بتطبيق مبادئ الحكمة في الحياة اليومية.

III- التيـــان الفيتنـامــي

في القرن الميلادي الثاني عرفت البوذية طريقها إلى المناطق الشمالية من البلاد بمجيء الرهبان الصينيين المتجولين ذوي التقليد الماهاياتي. وعلى رغم أن الحجاج الهنود أدخلوا الهنيابانا («نام» بالفتنامية) بالجنوب في أرض دلتا ميكونغ لاسيما في أوساط الخمير، فإن البوذية الماهايانية («باك تونغ» بالفيتنامية)، التي تسمى أيضاً بوذية الشمال، بقيت الغالبة في الفيتنام. في سنة 580م أسس الراهب الهندي فينتاغوسي الذي تلقى تعاليم الشان بالصين، أول مركز لتدريس هذا التيار الذي يسمى «تيان» باللغة الفيتنامية. لذلك حظي بلقب البطريرك الأول للمدرسة «زان» في الفيتنام. في سنة 820م، قام راهب آخر من أصل صيني، هو غونغون تونغ، بتلقين تعاليم مدرسة تيان جديدة، اكتسبت مكانة كبيرة حتى رحيل آخر شيوخها، السيد الجليل «فان هان» الذي كان المربي الروحي للإمبراطور لي تاي تون.

وقد عرفت المدارس البوذية، لاسيما مدرسة دهيانا ازدهاراً كبيراً تحت حكم سلالة لي (1010 – 1224م). كما أن الطوائف الدينية شكلت نخبة استشارية للطبقة الحاكمة فيما يخص إدارة الشؤون العامة. في القرن السابع عشر، نشأت داخل التيان المدرسة الفيتنامية لام تي (لينجي بالصينية) في المناطق الوسطى والجنوبية التي عُرفت بتطبيق

أعراف الغونغ آن أو الكوآن (انظر صفحة 36).أما في الشمال، فإن مدرسة تاو دونغ (كاو دونغ بالصينية) اشتهرت بالتركيز على التأمل جلوسا، في الحين الذي تميزت فيه مدرسة تيان تونغ القريبة من مدرسة تاو دونغ بأخذها عن المدرسة الشعبية وليس عن مدرسة تيان الصرفة للأرض الطاهرة (تيان دو بالفيتنامية). ولذلك اجتذبت عدداً كبيراً من الأتباع. في النصف الثاني من القرن العشرين، وبعد ضغط كبير من قِبل الكونفوشيوسيون وظهور نوع من التوافقية العقائدية المحلية لاسيما الوثنية والطاوية، فرض الاستعمار الفرنسي على الطوائف البوذية قواعد صارمة لرد السكان إلى المذهب الكاثوليكي.

في سنوات مابين 1920 و1930، وعندما ظهرت بوادر إصلاح بوذي في الوقت نفسه في أنام وطونكين والكوشينشين، صعدت تيارات الأرض الصرفة (الأميدية) على حساب تقاليد التيان. وعلى الرغم من أن العديد من الرهبان المؤيدين لآل فيت مينه تبنوا قضية هوتني مينه، مؤسس جمهورية الفيتنام الديمقراطية، فإن النظام الشيوعي في هانوي، منع تكوين المبتدئين وقام باضطهاد المتدينين وبإغلاق المعابد بموجب الإلحاد الماركسي. في هذه الفترات الواهية من الصراعات الإيديولوجية في قلب الحرب الباردة، المتأججة في المنطقة، وبينما كان وزير الدفاع الأمريكي روبرت ماكنامارا يدافع بحماس عن «نظرية الدومينو» تحت

خط العرض السابع عشر الفاصل بين جمهوريتي الفيتنام الشمالية والجنوبية، أطلقت حكومة جمهورية الفيتنام برئاسة نغو دينه دييم الكاثوليكي النزعة حملة قمع ضد الرهبان الذين عارضوا الحرب وسياسة سايغون، بل قام البعض منهم بقتل نفسه علناً للاحتجاج ضد الديكتاتورية المؤيدة للولايات المتحدة. واليوم ومنذ منعطف التحديث الذي انطلق سنة 1986 والذي يجسده شعار «التجديد»(دوبي موبي)، يعيش البوذيون تحت مراقبة صارمة حريةً ثقافية نسبية. ويعتبر الشيخ تيتش نهات هانه، الذي أُرغم على المنفى منذ حرب الفيتنام، الممثل الأكثر رمزية لمدرسة تيان. ولم يُسمح له بالرجوع إلى وطنه والعودة إلى معبد تكوينه الأول إلا عام 2005. وفي أرض أجداده ولعدة ثلاثة أشهر أكْثرَ من الخلوات والمحاضرات لنشر روح السلام والحرية في اللحظة الراهنة.

IV- الســون الكــوري

فيما يخصُّ شبه الجزيرة الكورية، ثمة إجماعٌ على أن البوذية عرفت طريقها إلى مملكة كوغوريو سنة 372م بواسطة الراهب شوداو الذي جاء من شمال الصين، وإلى مملكة بايكشي سنة 384م بواسطة الراهب هلالاندا الذي جاء من جنوب الصين عبر البحر. ولم تعتمد البوذية ديناً رسمياً في مملكة سيلا إلا سنة 527م. كما أن الشان لم يترسخ حقا في

كوريا إلا في القرن الثامن في عهد سلالة سيلا الأكبر (668 - 918م) بعدما اتخذ اسم السون. ولعل هذا التيار الجديد دخل إلى سيلا سنة 630م عن طريق الراهب الكوري بومنغ، وهو تلميذ البطريرك الرابع لمدرسة شان بالصين. ولقد انتشر هذا التيار في المملكة المتحدة كردة فعل على المذاهب العقَدية السائد،ة إذ ابتعد أتباع المدرسة التأملية عن المجتمع واستقروا في الجبال. وللتجرد من براثن النفوذ السياسي والمادي، تخلوا طواعية عن المجتمع ولجؤوا إلى الاختلاء في المناطق النائية قليلة السكان. وهكذا أنشأ تلامذة شيوخ الشان الصيني الكوريون تسع مدارس إشارة إلى جبال «السون» التسعة. خلال فترة حكم سلالة كوريو (918 - 1392) التحق شيوخ السون بالمراكز الحضرية واقتربوا من التيارات البوذية الأخرى، فسادت تعاليمهم في البلاد.

يُعتبر الراهب شيي نول (1158 - 1210م) مؤسس المدرسة البوذية التأملية تشوغي تشونغ من أكبر الشخصيات البارزة في السون في كوريا. ولقد أسس جماعة رهبانية في سونغ غونغ سا (إحدى النفائس العمرانية الثلاث للبوذية الكورية، إلى جانب معبدي هاين—سا وتونغدو—سا). وهذا المعبد الذي يقع على المنحدر الغربي لجبل جوغينسان في جنوب غرب شبة الجزيرة، عرف دماراً كبيراً خلال الحرب الكورية (لكنه بقي كبناء من القرن السادس عشر)، وأعيد بناؤه سنة 1973 حيث أنشئ

فيه أول مركز دولي يستقبل لفترة قصيرة الأجانب الذين يرغبون في تعلم التأمل. وهنا تكوّن في هذا المضمار شيوخ بارزون. وهنا أيضاً كان رجل الدين تشي–نول يلقن تعاليمه للرهبان والعلمانيين على حد سواء. وكان لتشي–نول، الذي يؤمن بأن البوذا ليس سوى قلبه، قناعة عميقة بأن التأمل المؤدي للصحوة ودراسة السوترا أمران متكاملان غير متعارضين. وقد سعى تشي–نول إلى إعادة الصلة بتقاليد السون، التي وهنت ابتداء من القرن الحادي عشر من جراء تشتُّتها بين تسعة جبال. فاقترح تقنية تأملية تشمل أيضاً الحكمة التقليدية، وعمل بجهد و نجاح نسبي على استقطاب البوذية العقدية التي عرفت من جانبها نوعاً من التجديد داخل تياره[5].

هذا المصلح أبدع عبر أفعاله وكتاباته موفقاً بين النظرية والتطبيق. وعلى الرغم من أنه ركز، كما هو الحال في تقاليد مدرسة لينجي بالصين (إيمجي باللغة الكورية)، على السعي إلى الصحوة المفاجئة واستعمال الكوان (الهوادو باللغة الكورية)، فإن تشي–نول لا يستثني التعلم التدريجي. فسداد اختيار طريق أو آخر يعتمد في نظره على استعداد المُمارس وتقدمه الروحي. وحسب هذا الشيخ الكوري الكبير: «إن كنت تشعر بنفور أو جاذبية، فستنجذب بشكل لا يقاوم نحو الأشياء البغيضة أو الجذابة. بالمقابل، إذا بقي عقلك ساكناً، فلن يعرف الانفلات

(5) فيليب كورنو، المعجم الموسوعي للبوذية، باريس، السوي، 2001، ص. 681.

له سبيلاً»[6]. وسوف يتابع التلميذ الأقرب، الراهب هاي–سيم الذي يدعى أيضاً تشين غاك (1178 - 1234م)، نقل تعاليم تشي–نول، خاصة عبر نظم قصائد تمدح التأمل.

كما أن الشيخ تاي غو–بوو (1301 – 1382م) وهو شخصية بارزة أخرى، بعد تعلمه في الصين قام بتوحيد جبال السون التسعة وتأسيس جماعة عقدية جديدة. وفي عهد سلالة آل يي (1392 - 1910م) أفل نجم البوذية تحت تحريض الكونفوشيوسية الجديدة، فأصبحت جميع الطوائف الدينية تتعرض لسياسة القمع. في القرن الخامس عشر أمر الملك سيجونغ بتوحيد المدارس البوذية المختلفة لتسهل مراقبتها، فاندمجت مدرسة تشغيي ومدرستي تيانتاي وفنايا لتكون نظاماً جديداً. وقد ساهم البطل القومي، الراهب الكوري الشاعر والخطاط، سوسان هيوجونغ (1520 - 1604) بسبب مقاومته المسلحة للاحتلال الياباني في إحياء وتجديد السون ووفاء لروح أجداده، عمل على جمع مختلف التيارات. وعلى نهجه، أحيا الراهب كيونغو سونيم (1849 – 1912) فكر السون في كوريا، وكذا رئيس دير سونغ غونغ–سا الراهب كوسان سونيم (1901 - 1983) الذي كان من كبار شيوخ السون الكوريين المعاصرين.

عندما انضمت كوريا لليابان (1910 – 1945) حاول شيوخ «الزن» الذين وفدوا على الأرخبيل أن يفرضوا على جماعات السون نهج

(6) فيليب كورنو، المعجم الموسوعي للبوذية، باريس، السوي، 2001، ص.681.

مدرسة سوتو. وفي سنة 1926، فرق نزاع حاد صفوف أتباع السون حول مسألة: هل يجب على الرهبان أن يأخذوا على أنفسهم التعهد بالعزوبة أم هل يحق لهم الزواج؟ وهذه الإشكالية أدت إلى حدوث انفصام أنجب مدرستين.

أنصار التقيد الصارم بالقواعد الرهبانية وهم الأغلبية (90 %)، وقد احتفظ هذا التيار باسم شغيي. أما الذين اختاروا روابط الزواج، فقد اتخذوا في أوائل 1960 اسم تياي–غو إشارة إلى الشيخ القديم. بعد ذلك، ساهمت منافسة الكونفشيوسية وانتشار المسيحية، لاسيما بزعامة الكنائس البروتستانتية ، وكذلك تكاثر الطوائف المنحدرة من الحركات الدينية الجديدة التي تمخضت عن مجتمع كوري جديد سلك نهج الاستهلاك، على تغيير القاعدة الروحية البوذية في كوريا رغم سعي جزء قليل من الجيل الجديد ذي حساسية خاصة إزاء حماية الطبيعة، إلى العودة اليوم إلى السون.

٧- «الـزّن» اليابانـي

قبل ظهور البوذية، كانت أول ديانة في اليابان هي الشنتو، وهذه العقيدة التي تنتمي إلى الشامانية كانت تكنُّ احتراماً وتعلقاً شديدين بـ«الكامي» (وهي كائنات متفوقة في وضع بشري) تشل قوى الطبيعة. «والكامي في الواقع هو روح الأشياء أو الناس، ومن ثم فهناك ما لا

يحصى من الأرواح يختلف بعضها عن بعض. ولا يتم التعلق إلا بالأهم منها، أو تلك التي تعتبر ذات سلطة. عديدةٌ هي الأرواح التي لم ولن تختص بأي طقس ولا تعلُّق، ومن خصوصياتها عدم الاضطلاع بأي وظيفة محددة. وكما أن هذه الأرواح لا تصنف في فئات متباينة، فهي لا توجد عبر درجة التعلُّق التي تخص بها.

إن هذه الأرواح لا تُعبد لأنها ليست تعبيرات عن الألوهة القاهرة، إنما يتم التعلق بها بوصفها مصدر كل شيء، من حيث هي مصدر فعال لكنه غير مقتدر»[7].

تقيم هذه الكيانات الروحية في النباتات والمعادن والأشياء، فالأرض نفسها ذات طابع إلهي. يُغرس الشينتو، وهو مفتاح الروح اليابانية، جذوره في قلب الجمال الدنيوي؛ إذ، حسب كهنة هذا الدين، «الأرض هي الأم التي تتلقى منها كل الكائنات الوجود والحياة». ولقد أسفر اللقاء بين الشينتو والبوذية، ولكن أيضاً مع الطاوية والكونفوشيوسية، عن العديد من الطقوس التوفيقية خاصة في عهد هييان (794 – 1185م).

1- البوذية اليابانية قبل الزن

«ذهبت الفلسفة البوذية في اليابان أبعد من أي بلد آخر وذلك بتلقين أن كل إنسان هو بوذا محتمل وأن قواعد الفضيلة لا تكمن في

(7) – لويس فريديريك، الشينتو، روح ودين اليابان، باريس بورداس، 1972. ص. 70.

الكتب المقدّسة بل في ما يمكن لأي واحد أن يستشعر في ذات روحه المضيئة والبريئة »[8].

دخلت البوذية إلى اليابان في القرن السادس الميلادي (رسمياً سنة 552م، حسب كتاب (نيهون شوكي)، أحد أهم المصادر اليابانية المكتوبة سنة 720م). وعلى مرّ القرون والمبادلات مع الصين وكوريا، ظهرت العديد من المدارس البوذية ذات الطقوس والممارسات الخاصة. فكانت هناك أولاً «طوائف النّارا الست» التي حولت العاصمة الإمبريالية إلى مركز للدراسات اللاهوتية المدرسية والتي لعبت وقتها دوراً طلائعياً من خلال تأثيرها في الميدان السياسي.

واستلهاماً من مؤلفات البوذي الهندي ناغارجونا (القرنان الثاني والثالث)، عمل «سنرون شو» على دحض الثنائية، كثمرة للوهم، مفضلاً التطرق إلى النسبة والفراغ. كما أن «جوجيتسو–شو» أو مدرسة كمال الحقيقة، التي سرعان ما انصهرت في طائفة سنرون شو، أرست قواعد تعاليمها حول نص هارفارمان (بوذي هندي عاش ما بين القرنين الثالث والرابع)، الذي ركز على مفهوم الفراغ.

أما «هوسو–شو»، أي مدرسة البحث عن مظاهر القوانين، فإنها تعتبر أن ليس هناك واقع خارج الفكر لأن الحواس لا تنتج إلا الأوهام. كما أن «كوش–سو» تستند هي الأخرى أيضاً إلى واقع الأنا لأن الفرد

(8) – روث بنيدكت، الأقحوان والسيف، فيليب بيكي طبعة الجيب، 1995، ص. 220.

يتكون من خمسة عناصر مؤتلِفة غير دائمة (انظر الحقيقة النبيلة الثانية). أما «كغون—شو»، أي مدرسة الدليل المزهر، فقد كانت أهم فرق النارا الستة وقد مارست تأثيراً كبيراً على مدارس المستقبل. وفي نظر الأتباع، ترتكز كل عناصر الكون حول تجلي بوذا ذي التأمل الفيروكاني «المتألق كلياً» (داينيشي نيوراي باليابانية)، الذي يعبر عن حكمة كونية ستصبح الألوهة العليا في مدرسة شنغون. وأخيراً تصرّ «ريتسو—شو» المنحدرة من التيار الهناياني، على التعليم الأخلاقي والالتزام الصارم بقواعد التربية الرهبانية.

في بداية عهد هييان (794 — 1185)، «عصر السلام والهدوء» نقل الإمبراطور تيمو تينو عاصمته إلى كيوطو (هييان كيو) ليفلت من نفوذ كهنة نارا الدَّهري. عندئذ، انتشرت طائفتا تانداي وشنغون الباطنيتان في اليابان. وقد تأسست الأولى، التي سميت باسم جبل تيانتاي في جنوب الصين، عام 805 باليابان على جبل هيي قرب العاصمة كيوطو، من قبل القس شيسو (767 — 822) المعروف أيضاً بعد وفاته باسم دنجيو دايشي. كان تعليمه يلح على شمولية الخلاص للبشرية جمعاء، فكل إنسان بمقدوره التوصل إلى الصحوة بممارسة دراسة الكتب المقدسة والتأمل والزهد والتقوى. وتعتمد هذه المدرسة نصاً مرجعياً السوترا لوتس، أحد أهم المؤلفات الكنسية للتقليد الماهاياني. وستؤدي إلى

تيارات أخرى مثل الأميدية. تأسست طائفة شنغون، المسماة بمدرسة «الكلمات الحقة» في اليابان من قِبل الراهب كوكايي (774 – 835م)، وقد كان من أبرز الوجوه اليابانية وكان يعرف أيضاً باسمه الشرفي بعد وفاته كوبو–دايشي «الشيخ الأكبر الذي ينشر القانون»، وقد كان يجسد الطريقة التانتريكية في اليابان استناداً إلى السوترات التي تمجّد بوذا فيروكانا .أثبت رجل الدين كوكايي إمكان الوصول إلى حالة بوذا في حياة واحدة بمساعدة شيخ مربي وممارسة بعض الطقوس مثل الغوما (الهرما باللغة السنسكريتية)، وهي احتفالية تتمركز حول النار التي ترمز إلى حرق الأهواء، لأن كل الكائنات مظاهر لقوة بوذا.

خلال عهد كاماكورا (1185 – 1333) عصر «الشوغون» وبالموازاة مع ظهور البوذية–الزّن، ازدهرت ثلاث مدارس تنعت بالأميدية لأنها كانت تقدس أميدا في الإمبراطورية الجزيرية وهي: «صودو–شو»، طائفة الأرض الطاهرة التي تأسست في اليابان على يد رجل الدين البوذي هونين (1133 – 1212م)، ثم «جودو–شين–شو»، الفرع الأصلي للأرض الطاهرة أسسها شينران (1173 – 1262م) أحد أتباع هونين، ثم «جي–شيي» طائفة أسسها إين شونين (1239 – 1289م) الراهب الأسبق في مدرسة تنداي. تميز التيار الأميدي هذا بالتقوى والورع الخالصين. رفض أتباعه الطقوس والممارسات المعقدة للمدارس

السابقة. فالخلاص حسب رأيهم، ينجم عن الإيمان بأميدا وليس في ذات الإنسان نفسه. وبمجرد ذكر أميدا، البوذا الأعلى لجنة الغرب، تمكن عامة البشر في العالم من الخلاص من غياهب الظلمات. كل البشر، أيا كانوا، يمكنهم الوصول إلى «الأرض الطاهرة» كلما ذكروا اسم أميدا يومياً. في الطقوس المختصة بأميدا، تم استبدال النيرفانا بالجنة أي «الأرض السعيدة» البسيطة التي في متناول الجميع.

وعلى الرغم من أن هذا الطقس ذي الأصل الهندي قد مورست شعائره منذ القرن الثاني في الصين، فإنه سيظهر في قلب الديانة اليابانية في القرون الوسطى. ويعتبر البوذيون الأرتودكسيون هذه العبادة المطلقة انحرافاً عقدياً قابلاً للجدال.

أما مدرسة نيشيران، فهي طائفة تتمتع بشعبية كبيرة وتتوجه بالأساس إلى سكان البوادي، وقد سُميت باسم مؤسسها نيشيران (1222 – 1282م) الذي أرسى مذهبه حول التفسير الأوحد لتعاليم السوترا لوتس والذي يعتبرها الوصية الروحية للبوذا التاريخي سيدهارتا غوتاما. وقد نادى نيشيران بعدم أهلية المذاهب الأخرى كما أنه تنبأ بمستقبل كارثي، وعارض جذرياً وبلا هوادة التيارات الأخرى لدرجة أن السلطات لجأت بعد إصدار حكم الإعدام عليه، إلى نفيه لعدة سنوات إلى جزيرة سادو.

2 – دخـول الـزّن إلى اليابـان

لم يكن من المتوقع أن يجد الزن مكانه المفضل على هامش المحيط الهادي. ولا شك أن الرهبان البوذيين كانوا على علم به منذ القرن السابع الميلادي، لكنه لم يترسخ فعلاً في اليابان إلا في أواخر القرن الثاني عشر الموافق لبزوغ عهد كاماكورا شوغن. ولقد ساهم السياق الاجتماعي على ازدهاره، إذ شجعت حكومة كاموكارا العسكرية نشر الزن الذي مثل آنذاك بديلاً لظرف سياسي فوضوي. كانت فترةَ تمرد العصابات المسلحة التي ترفض السلطة المركزية والثورات الفلاحية كرد فعل على العبودية الإقطاعية، في ذلك الوقت، وكانت السلطة السياسية والسلطة الدينية متعطشتان للنفوذ، وكان الجشع وانحلال الأخلاق والتناحر بين الطوائف تفسد العلاقات. لذلك، انتفض بعض رجال الدين أمام هذا الانحطاط وشدوا الرحال إلى الصين بحثاً عن تعليم حقيقي، فوجدوا في الزن ضالتهم إذ كان مرادفا للتقشف والزهد. بعد فترة من التكييف والاستيعاب، ضم البوذيون الزِّن اليابانيون العناصر الأجنبية إلى ثقافتهم، خصوصاً التأمل الهندي والفكر الطاوي الصيني بعدما وسموها بطابع أصلي. وبفضل بساطة الزن واعتداله وانضباطه، مورس أولاً في مجتمع الساموراي، محاربي القرون الوسطى، وذلك حتى القرن الرابع عشر قبل أن يبلغ الأوساط الأرستقراطية.

3 – مـدارس الزن

مهما كانت التأويلات، فإن الاختلافات بين مدارس الزن تتعلق أساساً بالمنهج الذي سنه مؤسسوها. تتكون الفروع اليابانية الكبرى التي تعود كلها إلى البوذية الصينية شان من الرنزاي–شو (اللينجي بالصينية). والسوتو–شو (كوادونغ بالصينية) والأوباكو–شو (وهي بنقل الحروف إلى اليابانية لاسم الجبل الصيني هوانغ بوشان).

أ. مدرسة رِنْـزاي

تحت سلالة التانغ أعلن الشيخ لينجي أو لينتسي، مؤسس المدرسة التي تحمل اسمه بالصينية: «في البوذية، لا حاجة لبذل الجهد، كن عادياً ولا تتميز، كل ما يجب أن تأكل، ارخ بطنك ، ارخ مثانتك وتمدَّد إذا شعرت بالتعب. الجاهل سيهزأ بي لكن الحكيم سيفهم» [9].

كان أسلوبه في التعليم يتباين مع الدراسة التقليدية للنصوص المقدسة التي نهجتها المدارس البوذية الأخرى، وقد كان الحكيم لينجي يشتم ويعنِّف ويضرب مريديه كي يجعلهم يكتشفون أن «الرجل الحق غير مرهون بشيء «، ليس حتى ببوذا! وسيدعم أتباعه رسالته في إطار ما ستصبح أكبر مدارس أحد أكبر تيارين في الشان، وهي مدرسة لينجي، المسماة رنزاي في اليابان.

تركز مدرسة رنزاي على أهمية عيش التجربة من منظور فعلي

(9) ألان و. واتسر– إيقاع الزن– منتزه الزن والزن، بيير جون أوسوالد، 1977، ص. 18.

وذلك بالدعوة إلى استخدام المجهود البدني واستعمال الكوان. والكوان (غونغات بالصينية يعني حرفياً «مسألة قضائية» أو «حكماً علنياً») وهي صيغة مفارقة غير منطقية وهزلية عبثية تندرج فيما وراء التفكير العادي ومفهوم الأنا. ومع هذه الأداة التأملية التي تصد كل استدلال أياً كان، يعود كل شيء إلى بساط البحث في مجال الوعي.

وطريقة المفارقات هذه لا تمثل قيمة كونية. من خلال الحث على ممارسة الكْوان، يجبر الشيخ كل مريد إلى الانفتاح على طبيعته العميقة والتخلي عن عاداته الفكرية وتفجير التفكير المزدوج وذلك بالعمل على خلق الشك وعدم الرضوخ لأي مشيئة أيا كانت، ولا ينبغي تركيز الاهتمام على الخطة المحدّدة للأشياء وإنما على اللاشكلي لسبر غور حقيقة كل شيء.

«وليست هذه الألغاز المقترحة موضوعاً للتأمل بحاجة إلى التأويل، فهي لا تحتوي على معنى خفي أو سري ينبغي اكتشافه. إن لامعناها هو الذي يؤهلها لزعزعة المعالم المتعارف عليها. وحل المعْضلة ليس هو تجاوز التناقض بمنطق جدلي وإنما بمساءلة السؤال وبالتالي بالقضاء على الإشكالية والحيرة. ينبغي قطع العقدة لتجاوز الورطة»[10].

(10) بيير ناكيمو فش «الاحتمال والصحة في خطاب دوجين» في «ثناء الأصول» وهج اليابان القديمة والحديثة تحت إشراف جوزيف .أ كيبوتز، فرانسوا ماسي، شارلوط فان فيرسكوير فيليب بيكي، 2004 ص 378.

إن مواجهة كوان دون التفكير فيها يحفّز الجهد البحثي الذي يبعث على الصحوة (ساتوري). وحده خيط فجائي من نور كوميض البرق، يمكنه انتشال المتأمل من عماه. يُعتبر الكوان تقنية للتأمل ذات تأثير صادم. وهنا يؤدي الشك إلى الصحوة. «لا ينبغي على المريد أبداً أن ينسى أن أغلبية كوان–زن ليست سوى النقط البارزة من العملة لا المأساة في شموليتها. وهكذا فإن الكوان يحكي سقوط «التفاح» الناضج ولكنه لا يحكي قصة هذه التفاحات التي هي سلسلة من المسرّات والأحزان والملذات والآلام والصراعات والمعاناة. يكفي أن يهز الشيخ الشجرة ليتساقط التفاح الناضج ويبقى الأخضر على الفرع»[11].

والأمثلة الشهيرة التالية تسلط الضوء على «تأمل الكلمات» التي لا ينبغي معارضتها في أي حال من الأحوال:

«ما الصوت الذي يحدثه التصفيق بيد واحدة؟».

«كيف كان وجهك قبل ولادة والديك؟».

«بنت تعبر الجسر، من هي أختها الكبرى؟».

«كل شيء يمكن اختزاله في شيء واحد، إلى أي شيء يمكن اختزال هذا الأخير؟».

«إذا التقيت بشخص اكتشف الحقيقة، ولا يسمح لك بقول أي شيء عندما يمر، كما لا يمكنك أن تلتزم بالصمت، فكيف ستقترب منه؟».

«رجل يقبض بأسنانه على فرع عال من شجرة. لا يمكنه أن يتشبث لا

(11) شانغ شين شي، ممارسة الزن. باريس. بوشي/شاستل 1960 ص51.

بيده ولا برجليه. فإذا بمار يبادره بالسؤال».

ما معنى مجيء بوذيدهارما من الغرب؟ «، إذا أجاب الرجل سقط وهلك وإذا بقي صامتاً، فإنه لم يحترم الشخص الذي سأله. فماذا يفعل؟».

«مرّ جاموس عبر نافذة، دخل الرأس والجسم والحوافر الأربعة، لماذا لا يمر ذيله؟ ».

يعود تاريخ أحد أشهر دواوين الكوان وأقدمها إلى القرن الثالث عشر، يتعلق الأمر بالمومونكان (حاجز بلا باب) أو ما يسمى بالصينية ومانغوان حيث تم تجميع ثمانية وأربعين كوانا من قبل وومن هوي هاي (1183 – 1260) شيخ الشان الصيني من مدرسة لينجي، المعروف في اليابان باسم مومن إيكاي. وعلى هذا النحو، قدم الديوان: «في تعاليم بوذا كلها، أهم شيء هو إدراك العقل، هناك عدة مداخل تؤدي إلى ذلك، لكن المدخل المركزي لا باب له» [12]. وحسب شيوخ الزن، يمكن استفاقة القدرات الحسية أيضاً عبر لعبة على شكل مجموعة من الأسئلة والأجوبة (موندو) وحوارات تبدو ظاهرياً مخالفة للصواب. والحكماء، عندما لا يجيبون بالشتيمة أو الضرب أو الصمت، فإنهم يلجؤون إلى ردود غالباً ما تكون ساخرة أو شعرية أو غريبة. على نفس طريقة الكوان، يدعو الموندو المريد إلى نبذ المراجع العقلية.

---

(12) فيليب كورنو، المعجم الموسوعي للبوذية، باريس، السوي، 2001، ص.681.

سؤال للشيخ:

«هل أنت في قلبك ؟ ».

جوابه: «لا، أنا في قلبي».

سؤال لشيخ آخر:

«ما كان غرض البطريرك بوذيدهارما عندما جاء من الغرب ؟»".

جوابه: «شجرة سرْو أمام الحديقة».

سؤال آخر: «ما هي التعاليم الأساسية لبوذا ؟»

جوابه: «في هذه المروحة ما يكفي من النسيم لإنعاشي»

سأل مريد شيخه:

«إن لم أحْضِر معي شيئا، فماذا أفعل ؟ ».

أجاب الشيخ « ضعْه».

إن لم أُحضر شيئا، فماذا أضع؟

أجاب الشيخ: «في هذا الحال، عدْ به».

«هل يمكن القبض على الفراغ ؟»

نعم، أيها الشيخ.

أرني كيف تفعل.

عانق المريد الفراغ بذراعيه، فقال له الشيخ:

هذا كل شيء، لكنك لم تقبض على أي شيء.

كيف تفعل أنت؟

أمسك الشيخ بأنف المريد وفركه بشدة.

آه ! إنك تؤذيني.

فردّ الشيخ:هي ذي كيفية القبض.

الأماكــن الرئيسـة لمدرســة رنــزاي

هناك خمسة آلاف وسبعمائة وأربعة وخمسون (5754) معبداً وتسعة وثلاثون ديراً في اليابان تنتسب كلها إلى مدرسة زنــزاي [13] وهذه أهمها:

- **الكينين– جي**

المؤسس: إيزي (1141 – 1215م).

تاريخ التأسيس: 1202 م.

المكان: كيوطو في الجنوب الشرقي للمدينة بحي هيغاشياما.

في الأصل، ولكي لا يصطدم هذا المعبد ذو النفوذ الكبير بأصحاب التيارات السابقة، كان يؤوي ثلاث مدارس بوذية (تانداي، شينغون، رنزاي زن)، قبل أن يصبح مركزاً حصرياً لتقليد الزن بدافع من الراهب الصيني رانكاي دوريو (1213–1278م).

- **التوفوكو– جي**

المؤسس: الوصي على العرش كوجو ميشيي (1193–1252م) تحت إشراف الراهب إيني المعروف أيضاً باسم بين إين (1202–1280م).

تاريخ التأسيس: 1236م.

المكان: كيوطو في الجنوب الشرقي للمدينة بحي هيغاشياما.

(13) حسب إيريك رومولوير، «مرشد الزن»، باريس، كتاب الجيب، 1997، ص. 243.

يعدّ التوفوكو– جي أحد أهم معابد الزن لعاصمة الإمبراطورية القديمة، وكما كان الأمر للكينين–جي في بداياته، فإن المريدين المبتدئين يتلقوْن في هذه المدرسة تعاليم مختلف التيارات البوذية. ثم أصبح الدير بعد ذلك مركزاً فنياً هاماً، ولازال يحتفظ إلى حد الآن بأعمال فنية قيمة (منحوتات ولوحات في فن الخط).

كما أن هناك ثلاث حدائق معاصرة (1938م) بتوقيع شيجوموري مير تعكس روح الزن في المكان.

- **الكونشو– جي**

المؤسس: هوجو توكيوري (1227–1263م)، دشنه الراهب الصيني رانكاي دوريو (1213–1278).

تاريخ التأسيس: 1253م.

المكان: كاماكورا.

يمثل الكونشو– جي أول معبد بوذي في اليابان مخصص حصرياً لتعليم الزن.

- **النانزن– جي**

المؤسس: الإمبراطور كامايام (1249–1305م) تحت إشراف الراهب موكان فومون (1212–1291م).

تاريخ التأسيس: 1291م.

المكان: كيوطو في شرق المدينة بحي ساكيو–كو، على «طريق الفلسفة».
يصنف النانزن زن في أعلى مراتب المعابد في كيوطو الذي كان رئيس ديره موزو سوسيكي، والذي اشتهر بتآليفه المعدنية والنباتية ومنها «حديقة النمر الواثب»، وهو منظر حجري ورملي يعزى إلى شيخ الشاي كوبوري إنشو (1579–1647م).

- **الدايتوكو– جي**

المؤسس: شوهو ميوشو (1282–1337م) المسمى أيضاً دايتو كوكوشي.
تاريخ التأسيس: 1315م (رسمياً في 1324م).
المكان: كيوطو في شمال المدينة بحي موراسا كينو.
وقد بلغ الدايتوكو– جي، وهو أحد المقرات الأساسية لمدرسة رنزاي وأحد أهم المعابد القديمة في العاصمة الإمبراطورية، أوج شهرته بسبب التقشّف الذي يهيمن عليه. وقد استقر به الشيخ إكيو (1394–1481م). وبعد أن عرف نوعاً من الانحطاط في العصر الميجي، بقي إلى يومنا هذا مهملاً.
داخل السور الذي يبدو بسيطاً، يوجد إلى جوار الدير وإقامة الرئيس، اثنان وعشرون معبداً ثانوياً كل واحد منها يتوفر على حديقة بعضها مفتوح للعامة.

• **الميوشين– جي**

المؤسس: كانزان إنغن (1277–1369م)

تاريخ التأسيس: 1337

المكان: كيوطو في غرب المدينة بحي هانازونو يقع على مقربة من إحدى فيلات الإمبراطور هانازونو، ويضم أكبر عدد من البنايات الرهبانية ومنها ستة وأربعون معبداً ثانوياً، كما يحتوي على تحف فنية قيمة وأقدم جَرس في البلاد.

• **التنْريو– جي**

المؤسس: الشغون أشيكاغا تاكاوجي (1306–1358م) بنصائح موزو سوسيكي.

تاريخ التأسيس: 1339م.

المكان: كيوطو غرب المدينة شمال جبل أراشياما.

وقد أُعِدَّ «معبد التنين السماوي» هذا على أملاك الإمبراطورية للاحتفال بذكرى الإمبراطور غو–دايغو المعروف بحديقته الشهيرة وشلالها الجاف، والتي تعتبر إحدى أقدم الحدائق في المنطقة (القرن السادس عشر). وقد جسَّمها موسو سوسيكي الذي كان أول قيِّم عليها بنفسه .

ب. مدرســـة سوطـــو

تأسست مدرسة سوطو في الصين تحت اسم كاودونغ من قبل

الشيخ دونغشان ليانغجي (807 – 869م) المعروف في اليابان باسم توزان ريوكاي ومريده كاوشان يينجي (840 – 901م) (سوزان هونجاكو باليابانية)، وترجع إلى تينيوان كسنكسي (660 – 740)، سيغين جيوشي باليابانية، المريد الرئيسي للبطريرك هوي ننغ الذي يحمل اسم إينو في اليابان.

قامت مدرسة سوطو على مبدأي الدوكوزان (لقاء الشيخ والمريد على انفراد) وعلى الشكانتازا (وتعني «الجلوس فقط» ولا شيء أكثر من ذلك). وفيها يُعتبر التأمل الصامت جلوساً جوهر الممارسة، وهو ما يسمى بـ«زازن»؛ وهذا النوع الخالص من الزازن يتطلب تيقظاً شاملاً لأن الأمر يتعلق فقط بالتركيز على الجلسة. وينصح أتباع السوطو بالقيام بالموكوشو–زن، أي بالتأمل بدون موضوع ولا هدف ولا مبرر، فعل مجرد لا يسعى لربح. وتُعرف مدرسة سوطو أيضاً بـ«زن الصحوة الصامتة» مقابل «زن تأمل الكلمات» الذي يميز مدرسة رنزاي. ولقد جاءت مدرسة سوطو من الصين عن طريق الراهب دوجين ومارست تأثيراً في اليابان، ولعل ذلك راجع لكون الشيخ الشهير دوجين «أحد أعمق الباحثين الذين عرفتهم اليابان» كما جاء على لسان العالم المختص في اليابانيات والمترجم روني سيفرت (1923–2004)(14).

(14) روني سيفرت، أديان اليابان، باريس ، المنشورات الجامعية الفرنسية، 1968 ص. 54 . أعيد طبع الكتاب سنة 2000.

إن مدرسة سوطو، خلافاً لغيرها من التيارات البوذية اليابانية الممثلة أساساً بالمدرسة الباطنية شنغون، ترفض كل التأملات النظرية حول الآخرة والطقوس الشعائرية. كما أنها تتبع مسار «الصحوة التدريجية»، لحظة بلحظة، في حين تنهج مدرسة زنزاي مسلك «الصحوة المفاجئة».

الأماكن الرئيسية لمدرسة سوطو [15]

أربعة عشر ألفاً وسبعمائة وثمانية عشر (14718) معبداً وواحد وثلاثون ديراً تنتسب كلها إلى مدرسة سوطو.

- **الكوشو–جي**

المؤسس: دوجين (1200–1253م).

سنة التأسيس: 1237 م.

المكان: في مقاطعة شيغا الحالية قرب بحيرة بيوا.

كان الكوشو–جي أول دير للزن سوطو في اليابان وفيه كتب دوجين بداية مؤلفه: شوبوغنزو.

- **الإشي–جي**

المؤسس: دوجين.

تاريخ التأسيس: 1244م.

المكان: بمقربة فوكوي.

يعتبر هذا المعبد من بين الأماكن الرفيعة التي احتضنت تيار السوطو.

(15) إيريك روميلوير، المصدر السابق، ص. 243.

وبعد سنوات خصبة من التلقين والتعليم تعرض المعبد الذي يقع على منحدر الجبال إلى عدة حرائق أحالته إلى خراب في القرن الثامن عشر. أما اليوم فإن الرابطة المؤلفة من مائة وخمسين راهباً تستقبل الزوار الذين يرغبون في تعلم الزن، كما أن إيشيي–جي يعد اليوم من أشهر المواقع السياحية لليابانيين.

• **السوجي–جي**

المؤسس: كيزان–جوكين (1268–1325م).

تاريخ التأسيس: 1321م.

المكان: يوكوهاما.

وهو ثاني أهم معبد لمدرسة سوطو ويقع منذ أواخر القرن التاسع عشر في مدينة يوكوهاما الساحلية.

وقد بني في الأصل في إشيكاوا بشبه جزيرة نوطو، لكنه نقل إثر حريق إلى يوكوهاما. وكان لمدة طويلة موضع تنافس مع معبد إشيي–جي.

وفي القرن الرابع عشر ارتبط المركز بمدرسة سوطو بعدما كان في الأصل معبداً ينتسب إلى تيار شنغون.

ج. مدرسة أوباكو

رغم أن مدرسة أوباكو ذات أهمية أقل ولم تظهر إلا مؤخراً، فإنها

هي التي نَمَت في اليابان في القرن السابع عشر، ولها مكانتها إلى جانب المدرستين الهامتين للزن الياباني. ومؤسسها هو الشيخ الصيني ينيوان لونغكي (1592 – 1673)، والمعروف في اليابان باسم إينفت ريوكي والذي جاء إلى اليابان فاراً من الصين إثر سقوط آل مينغ. ثم استقر مع أتباعه في ناغازاكي سنة 1654م. وحصل على رخصة استثنائية (لأنه كان أجنبيا) من الشغون الشاب توكوغاوا ليتسونا (1641 – 1680م) لإقامة معبد ذي مدرسة تحمل اسمه: الأوباكوزان هانبوكو–جي.

ولن يسيَّر هذا المعبد حتى 1740 إلا من قبل رجال دين صينيين. وهذه المدرسة تنتمي إلى نفس التيار الديني لمدرسة الرنزاي–الزن غير أن التعاليم تختلف قليلا.

وعلى الرغم من انتماء أتباع هذه المدرسة لسلالة رنزاي إلا أنهم يُضَمِّنون ممارساتهم بعض المفاهيم الأميديية المعمول بها بمدرسة جودو مثل: الانبعاث في جنة الأرض الطاهرة والعناصر الباطنية الصينية. أما خصوصية أتباع هذه المدرسة (أوباكو) في تقاليد الزن فهي التأمل مع ذكر اسم بوذا أميدا الذي يتفانون في الإخلاص له.

الأماكن الرئيسة لمدرسة أوباكو (16)

هناك أربعمائة وستين معبداً وديراً، تنتسب كلها إلى مدرسة أوباكو، وأهمها:

(16) المرجع نفسه.

- **الأوباكوزان مانفوكو–جي**

المؤسس: إيغين ريوكي (1592–1673م).

تاريخ التأسيس: 1661م.

المكان: إيجي في المنطقة المحيطة بكيوطو، ولازالت صروح المعبد الرئيس لمدرسة أوباكو، التي صممها مهندسون صينيون، إلى يومنا هذا هي البنايات الوحيدة المرئية من المعمار الصيني شان من عهد آل مينغ. وهناك يتم تقديم وجبات فريدة بطعم «فوشا ريوري»، من المطبخ النباتي زن على النمط الصيني.

الفصل الثالث
الشيوخ الكبــار

I- بطاركة الصيــن الستــة

*** بوذيدهاما** (470 م- 543 م)

لعل الأب المؤسس للزن بوذيدهارما (بوذي داروما باللغة اليابانية) هو الذي أدخل البوذية الماهايانية في القرن السادس ونقل التعاليم الأولى لجماعة ذيانا الهندية التي ستصبح فيما بعد مدرسة شان الصينية. وهذا الشيخ الهندي ذو الشخصية الأسطورية، ينحدر من عائلة أميرية في منطقة مدْراس، وانتقل إلى الصين، فنشر عبر وعظه تعاليم ما سيصبح لاحقاً الزن. وهو من أهم مُنَظِّري مدرسة ماهيانا التأملية كما يعتبر همزة وصل بين الذيانا الهندية والشان الصيني.

ويعد بوذيدْهارما البطريرك الهندي الثامن والعشرين وأول بطريرك صيني[17]. بيد أن المصادر التي يعتمدها كُتَّاب سيرته تنهل من الأساطير التي تحيط بشخصيته. لكن غياب حقيقة تاريخية لا يزعج أتباع الزن.

تروي بعض الحكايات أنه كان وراء ظهور حبة الشاي وأن الرجل

(17) انظر الملاحق ص. 122، شجرة الأنساب الرسمية لسلالة البطريركات، وكذا القائمة التلخيصية لبطريركات الصين الستة وأسماءهم باللغة اليابانية.

الصالح كان يعبر المياه على غصن خيزران أو قصب. ولعل الحادثة التي غالباً ما تَرِد حوله هي لقاؤه مع المريد البوذي الورع، الإمبراطور الصيني يو (502 – 549/550م) الذي سأله عن الأفضال المكتسبة من تشييد العديد من الصروح البوذية وتقديم القرابين أمام المذابح المكرسة للصاحي.

يُروى أن بوذيدهارما أجاب بفظاظة: «لا فضل في ذلك». وبارتياب، طلب عاهل سلالة آل ليينغ من الحكيم أن يبين له حقائق التعليم المقدّسة، فأجاب الحكيم: «لا يوجد شيء مقدس. الفراغ، ليس هناك سوى الفراغ». «لكن، من ذا أمامي؟» ردّ الإمبراطور بعنف، فأجاب بوذيدهارما: «لا أدري».

عديدةٌ هي الروايات التي تصور الموقف ذاته: كل تأويل من شأنه أن يُغْرق الممارسين في أوهام جديدة.

ووفقاً للتقاليد، يظهر أن بوذيدهارما مارس التأمل جالساً (زازن) في وضعية اللوتس خلال تسع سنوات محدّقا في جدار بمعبد شاولين قرب لويانغ بالصين. وذلك ما جعل الراهب الزن سنغاي يقول ساخراً: «يوم ذكرى موت بوذيدهارما، تذكرنا الألم التأملي الواقع أسفل الكليتين خلال جلسة تأمل طويلة».

في التخيلات البوذية، هناك مجموعة من الصور التي تميز شخصية

بوذيدهارما الأسطورية: السلوك الصارم، التحكم الشديد، النظرة العابسة المتفحّصة دوماً، الملامح القنوعة والنشيطة، الرأس مخروطي الشكل، الحاجبان الكثان. خلال رحلة البوذية الطويلة إلى الشرق، سُمي بوذيدهارما باسم بداموداشي في الصين وباسم داروما في اليابان، وهذا الاسم اختصار لبوذاي داروما (علماً أن بوذاي هي الترجمة اليابانية لكلمة بوذي السنسكريتية).

يُعتبر داروما رمزاً شعبياً للثقافة الصينية منذ عهد إيدو ولقد أعار وجهه، في الأرخبيل، إلى دمية تجلب الحظ، وتباع بعينين بلا حدقات. وبعد الإعراب عن أمنية دفينة، يرسم صاحب الدمية عيناً. وعندما تتحقق الأمنية، يتم تصوير العين الثانية.

*** هوي كو أو هوكي، هويكو (487 – 593م)**

انضم بطريرك الصين الثاني هوي كو (إيكا باللغة اليابانية)، بعد إلمامه بالكونفوشيوسية والطاوية ودراسة المذهب البوذي، إلى بوذيدهارما لاتّباع تعليمه. وحسب الرواية التقليدية، يقال إنه بتر ذراعه الأيسر ليعبر عن التزامه الصادق بالطريقة. حسب رواية أخرى، يقال إن لصوصاً قطعوا في الواقع ذراعه وأمام عجزه، تقبَّل بوذيدهارما ذلك برفق.

أما الحقيقة التاريخية، فتبقى غير مؤكدة.

ربما يجب اعتبار هذه الحادثة تعبيراً عن الرغبة في القطيعة والزهد. لم

يترك هوكي أي شيء مكتوب. وقد أعدمته السلطات لأنه اعتبر زنديقاً إثر الحملة التي شنها عليه بوذيون آخرون.

*** سنغ- تسان أو سنْغكان (المتوفى سنة 606م)**

في سن يناهز الأربعين، أصبح الأبرص سنغ-تسان (سوسان باللغة اليابانية) مريداً لهوي كو في وقت كانت فيه الحكومة الصينية تضطهد البوذيين. وبعد سنوات من التَدَيُّن والممارسات السرية، لجأ البطريرك الثالث إلى الجبل فأصبح شيخاً لتاو-هسين ولقَّنه لمدة تسع سنوات تعاليم شان.

تجدر الإشارة إلى أن أقدم نص معروف للشان الصيني هو شين جيزمي. وهذا الديوان الذي يضم ثلاثاً وسبعين قصيدة حول الإيمان بالروح، يركز على الفراغ وعدم الازدواجية وضرورة نبذ التعصب والروابط. وينسب هذا الديوان إلى سنغ-تسان، هذا الحكيم الذي قال:«لأننا نريد أن نمسك أو نبْسط، فلسنا في الحقيقة أحراراً». ويعدُّ ديوان شين جين كتاباً تلقينياً ألهم العديد من المريدين[18].

*** تاو-هسين (380 - 651م)**

تابع تاو-هسين (دو-شين باللغة اليابانية) في طفولته تعاليم سنغ-

(18) تيزون ديشيعارو، روح الشان: الشين جين هي في الأصول الصينية للزن، باريس، ألبان ميشيل، 2000.

تسان. وعلى الفور توسم هذا الأخير فيه استعداده ليصبح مريداً عالي القدر، فقاده إلى الصحوة خلال حوار شهير (...)

«أتوسل إليكم فضيلة الشيخ، أرجوكم الرحمة. أرشدوني إلى سبيل الخلاص».

فسأله البطريرك: «من ذا الذي قيدك»؟

- لا أحد.

- فلماذا تطلب مني أن أخلصك؟

«فسرعان ما عرف السالك الصحوة.[19]

ولقد قادته معرفته بالطاوية والنصوص الكنسية البوذية إلى قيادة جماعة مرتكزة كلياً على الشان، مستقلة لأول مرة عن المدارس البوذية الأخرى.

*** هونغ-جين أوْ هونغرين (601 - 674م)**

هو البطريرك الخامس ورئيس دير جبل البرقوقة الصفراء الذي يقطنه ما يقرب من خمسمائة رجل دين. ويظهر في تاريخ الشان كرجل حر لا يعبأ بالأعراف ولا بمراعاة الطبقية. قرر هونغ-جين (كونين باللغة اليابانية)، مع تقدمه في السن، أن يختار خليفته من بين مريديه، فدعا كل فرد منهم لكتابة قصيدة تعبر عن روح الشان.

كتب عميد الرهبان، الأديب والشيخ المربي شيكسيو:

(19) جاك بروسر، الزن والغرب، باريس ألبان ميشيل، 1992، ص. 103.

«جسدي شجرة الصحوة.

فكري يشبه مرآة صافية.

أحاول تلميعه في كل آن.

ولا أتركه يكتسي بالغبار».

رأى هونغ–جين أن هذه الأبيات لا تعكس رؤية أصيلة للشان. فألف شخص يدعى هوي–ننغ هذا المقطع الشعري:

«لم تكن هناك أبداً شجرة صحوة.

ولا أبداً مرآة صافية.

البوذية دوماً صافية.

أين نجد فيها الغبار؟».

وهذه الأبيات التي نعتها البعض بالوقاحة هي نفسها التي جعلت البطريرك الخامس يفضل كاتبها الذي كان يقتصر على مهام عادية في مطابخ الدير، ويُعينه حامل الرّقْعة بدل البليغ الموقَّر شينكسيو. وبقراره هذا، سيثير هونغ–جين في مستقبل قريب انقساماً داخل مدرسة شان.

*** هوي– ننغ أو هوننغ (638 – 713م).**

يُعتبر البطريرك السادس أكبر مروِّج لمدرسة الشان وقد عمل في تدريس الانفتاح على إدراك الراهن. ونادى هذا الخطاب الذي بالكاد يعرف القراءة والكتابة بطريقة جذرية للتلقين.

وكان يعتقد أن لا شيء موجود في الأساس، ويعارض كل الأنظمة والطقوس والعقائد، ويعتبر أن التأمل هو على وجه التحديد جسد المعرفة وأن المعرفة هي بالضبط نشاط التأمل. في لحظة المعرفة، يكمن التأمل في المعرفة، وفي لحظة التأمل، تصبح المعرفة تأملاً محضاً.[20]

ويُعتَبر هوي–ننغ (إينو باليابانية) مؤسس مدرسة الجنوب التي تهدف إلى تحقيق الصحوة الفورية والمفاجئة.

بينما تنشر مدرسة الشمال التي أنشأها شينكسيو الوسائل الروحية التي تؤدي إلى الصحوة التدريجية والمرحلية. وقد قام هوي–ننغ بقطيعة جذرية مع البوذية الهندية.

ولا تنطوي الطبيعة البشرية في جوهرها حسب رأيه على عيب أو دناءة، فكل واحد يحمل «الصحوة في ذاته». ومن يبحث عن بوذا في الخارج، باتباع هذا المذهب أو ذاك، فإنه لا يعرف المكان الحقيقي حيث يوجد بوذا الحقيقي.

وتحكي «سوترا المنصة» حياة وتعاليم هوي ننغ.أما خلفه المباشر فهو شينهوي (670–762م) الذي نشر الشان في الشمال، وتبعه مازو دلوي (709–788م)، الذي لقب بعد وفاته بشيخ زن السكينة الكبرى. وتحت حكم سلالة آل تانغ، أرسى هذا الأخير بثبات حركة الزن في مجتمع يخضع للخرافات الشعبية.

(20) فيليب كورنو، المعجم الموسوعي للبوذية، باريس، لوسوي، 2001، ص. 242.

II– شيــوخ اليابـان

كان معظم شيوخ الزن اليابانيين الأوائل قد درسوا البوذية من قبْلُ في مدارس أخرى.

*** إيزاي أو يوزاي (1141 – 1215)**

يعتبر إيزاي مؤسس تقليد الزن ومدرسة رنزاي في اليابان. فبعد دراسة تعاليم تقليد التنْداي بجبل هيه، حج إلى الصين لأول مرة سنة 1168م، ثم عاد إليها مرة أخرى سنة 1187م. وهناك تلقى تعاليم شان لمدرسة لين–تسي (أو لينجي). ولدى عودته لم يقتصر على نشر «الزن» بل أثنى على شرب الشاي الذي يساعد على دعم ممارسة الزازن مساهماً على نشر استهلاكه في المعابد والأديرة. وبعد عدة سنوات من التحصيل، أسس أول معبد للزن في اليابان وهو دير شوفوكو–جي في هاكاتا على الجزيرة الجنوبية الكبيرة بالأرخبيل (كيوشو).

ومؤلَّف إيزاي الأساس هو رائعته «وزين–غوكوكو–رون» (حماية البلاد بنشر الزن) وهو أحد النصوص اليابانية الرائدة التي تعنى بالزن. ومن مقدمته ذات المستوى الأدبي الرفيع، يحلو لنا تكرار المقطع التالي (مع إخضاعه للإيقاع):

«ما أكبرَ الروح،

مستحيل قياس علو السماء،

لكن الروح تذهب أبعد من السماء.
مستحيل قياس عمق الأرض،
لكن الروح تذهب أبعد من عمق الأرض.
مستحيل الذهاب أبعد من نور الشمس والقمر،
لكن الروح تذهب أبعد من سطح نور الشمس والقمر» [21].

وها هو إيزاي يسترسل في كتاباته قائلاً بأن «الروح تحتوي على الفراغ الأكبر» و«تخلق الطاقة الروحية»، وعلم الطاقة مستمدٌّ هنا من التقاليد الطاوية.

*** دوجين (1200 – 1253م)**

نشأ في منطقة كيوطو، العاصمة الإمبراطورية، في عائلة أرستقراطية رفيعة القدر. مثل إيزاي، شرع مؤسس مدرسة سوطو في اليابان في تعلم مبادئ المدرسة الباطنية البوذية تانداي وهو طفل عندما دخل يتيماً إلى دير إنرياكو–جي في جبل هيه. ولقد جعلته حاجته للدراسة يبتعد عن الطقوس والشعائر. وعندما أصبح شاباً، تابع تعاليم مدرسة رنزاي، وبصحبة أحد أتباع إيزاي، رحل إلى الصين سنة 1223م حيث استأنس بتعاليم الشان كاودونغ الذي سيصبح وبواسطته في الأرخبيل: الزن سوطو. وهو سيحظى، على يد الشيخ جو–شنغ (1163 – 1228)

(21) ماسومي شيباتا، شيوخ الزن في اليابان، باريس ميزون نوف ولاروز، 1995 ، ص، 18.

المسمى كاندو نيوجو باللغة اليابانية، بتلقن قاعدة الزن، ومن أسفاره الروحية، سيعود خالي الوفاض، بدون سوترا ولا حتى نص مقدس، لكن بقلب مليء بالايمان.

بعد عودته من اليابان، سأله أحدهم عما تعلم خلال إقامته لمدة خمس سنوات بالصين، فأجاب دوجين، «تعلمت فقط أن العينين أفقيتان وأن الأنف عمودي ». وبمناسبة سؤال مماثل، أجاب: «لم أتعلم الشيء الكثير، لكنني حصلت فقط على مرونة فكرية»[22] .

لا يتردّد دوجين، الذي تحركه صرامة روحية عميقة، في انتقاد المؤسسات الدينية، كما أنه يؤمن بالتجربة المباشرة: «معرفة الطريقة البوذية هي معرفة من نكون، ومعرفة من نكون هي نسيان «الأنا»، ونسيان «الأنا» هو أن تكون كل الأشياء شاهدة علينا». كما أنه يعتبر أن الوقت سواء كان بشرياً أو كونياً لا يمكن أن يقاس، لأنه ليس إلا حضوراً. ويعطي دوجين الأولوية لزازن بدل الكوان، كما يرى أنه ليس هناك إلا طريقة قانون بوذا الأصلية، ولا يستحسن مصطلح «زن» الذي يجده مختزلاً. وهو لم يترك لنا مصنَّفا نظرياً أو مجموعة من الحكم بل ترك ديواناً من الخطب والمواعظ تحت عنوان شوبوغنرو[23] .

وهذا المؤلَّف الذي كُتِب بين سنة 1231 و1253م، رغم أنه لم يكتمل،

(22) المصدر السابق الذكر.

(23) دوجين، القانون الحقيقي، كنز العين، نصوص مختارة من شوبوغنرو، باريس، لوسوس، 2002.

تطرق إلى الأفكار المؤسِّسة للبوذية وتاريخ تعليم الزن وكذا ممارسة التأمل جلوساً، وكان ينتقد بشدة الشيوخ الذين يضيعون في متاهات التكرار ويتباهوْن بالعلم.

«يعترف دوجين أنه لا ينبغي الاكتفاء بالكلمات، فالآتي يبزغ من الأفق. كما لا يدّعي استبدال عرض قيم بسيطة تمثيلية بفعالية الممارسة، بل يدعو إلى الشروع في الإنصات: «دون الاقتصار على دائرة الأذن والسمع، يمكن سماع دارما بتحريك الهمة والفكرة والجسد والكلمات»»[24].

إن العمل ذا التأويلات المجازية الشائكة يجب أن يُنظر إليه كدعوة للتأمل، لأن كاتبه ينشد الحقيقة بدون تنازلات. وقد عُرف دوجين بعد وفاته باسم شويو دايشي.

*** إيكيو (1394 - 1481):**

يعتبر إيكيو سوجون من بين حكماء البوذية إنساناً استثنائياً، حسب الرواية التقليدية، يقال إنه كان ابناً طبيعياً للإمبراطور غو–كوماتسو. وكان مفكراً ورساماً وشاعراً محترماً من كل الفنانين ومحبي الجمال، وقد فرّ هذا الجذاب من حلبة رجال الدين مفضلاً أهالي الهوامش، بعيداً عن الامتثال للأعراف، حيث وقع هو نفسه في حب امرأة، لم يكن

(24) بيير ناكمو فيتش.

إيكيو ليتردَّد في الاستهزاء بحياة رجال الدين مثل موليير في «الزنديق»، ولم يتوان في لوم نفاقهم، وبفضله عانقت الطبقات التجارية والشعبية «الزن». ورغم حياته المترحلة عُيِّن بمرسوم إمبراطوري غير تقليدي، قَيِّماً على دايتوكو–جي، فعمل بحماس على إعادة تشييد الدير قبل أن يدخل في خلوة في محرابه.

ولقد وسم الآباء المؤسسون للزن، في اليابان أجيال الأتباع الذين خلفوهم. ابتداء من أواسط القرن الرابع عشر، عرف الزن فترة ازدهار منقطعة النظير.

وعندما استقرت «الشغونا» الجديدة بإيدو (1603م)، وُضِع رجال الدين البوذيون تحت رقابتها الصارمة، فلم يعد هناك شيء يؤتى دون إذن. كانت ممارسات القيِّمين على مدرستي رنزاي وسوطو بعيدة كل البعد عن الأنظمة التي نادى بها الشيوخ الأوائل. في القرون التالية، قلائل هم الراهبون اللانمطيون الذين سيشهدون، بعيداً عن المتعارف عليه، على رحلة بحثهم لاسيما في المجالات الفنية.

الفصـــل الرابـــع
ما هــو الــزّنْ؟

أن ندرك أن الزن لا يدرَك، تلك بالفعل هي الخطوة الأولى نحو الحقيقة، وأن نتجنب كل إثبات قطعي، فتلك ضرورة قصوى.

لهذا، نجد هذه العبارات تتكرر في العديد من المؤلفات التي تطرقت للزن: «إذا لم تمارس الزن، فإن الأنهار تكون أنهاراً والجبال جبالاً، وعندما تمارسه تكف الأنهار عن أن تكون أنهاراً والجبال جبالاً. وعندما تحققه، تعود الأنهار أنهاراً والجبال جبالاً». كل واحد يجب أن يكتشف الزن بنفسه عبر التجريب ومراقبة مشهد العالم بحكمة وحنوّ. يوماً بعد يوم، يساهم التأمل والعمل والوعي بأهمية الطبيعة في تحقيق الصحْوة. ووحدها الممارسة اليومية للتحول تعلو على كل شيء.

فمن اختار طريق الزن لا يمكنه أن ينتظر سلبياً استقبال الصحوة. «إنْ فعل ذلك، سيكون مثل عاطل جالس على حافة الطريق ينتظر أن يأتي منزله إليه، وذلك ما لن يتحقق أبداً. إنه لن يجد منزله إلا إذا مشى نحوه، وذلك شأن دراسة الزن»[25]. ليس الزن مجرد منهج فحسب، بل هو ممارسة حية، مباشرة وحدسية تقرب من علم المعاملات ومن السلوك الداخلي أو من إجراء يؤدي إلى مواجهة مع الذات.

---

(25) شنغ شين– شي «ممارسة الزن» باريس بوشي اشاستيل 1960 ص 96.

أثناء رحلة طويلة، وقف راهبان أمام نهر لا يوجد عليه جسر فقررا أن يعبراه مشياً، عندما فوجئا بامرأة جذابة تطلب منهما أن يساعداها على الوصول إلى الضفة الأخرى، اقترح عليها الأكبر سناً أن تجتاز النهر فوق ظهره. قبلت المرأة الجميلة وشمرت ذيل ثوبها. بعدما شكرتهما، تابع الراهبان طريقهما. مرت ساعات طوال من المشي في صمت، فلم يعد الراهب الشاب يستطيع صبراً، فقال: «ما الذي جعلك تساعد الفتاة على عبور النهر وأنت تعلم أنه لا يجوز مطلقا لرجال الدين مثلنا أدنى اتصال بالنساء؟». ابتسم الراهب الشيخ قائلاً: «يبدو أنك تعبت من حمل هذه المرأة طويلاً في نفسك. أما أنا فقد أنزلتها إثر وصولنا».

إن الحاجة الملحة للتخلص من الرغبات تخفف من وطأة الوجود. الأفكار تضلل والانفعالات تعمي والاضطراب الذهني مصدر المعاناة والانحباس، فالغرق في غمرة المشاعر والأطماع والأحقاد يمنع من رؤية الأشياء كما هي. كما أن مشاهدة الواقع دون البحث عن الحق شيء أساس.

لهذا، ينبغي الكفّ عن التمسك بالآراء. وهاهما راهبان يراقبان راية ترفرف في مهب الريح. يرى الأول أن الريح هي التي تسبّب حركتها بينما يعتقد الثاني أن الراية تتحرك من ذاتها. أما شيخهما فيرى أن عقلهما هو الذي ينتج الحركة والفعل. ولأن الذهن قد يكون عائقاً

أمام الصحوة، فإن ممارسي الزن يسعون للتحرر من العقل والمنطق. «أدخل في الشكل، أخرج من الشكل، واعثر على حريتك» يقول حكماء طريقة الزن. وكرد فعل على مذهب اللاهوت المدرسي، فضّل المصلحون البوذيون التخلي عن الدراسات النظرية والأبحاث الفكرية التجريدية لصالح التجربة المباشرة من خلال التأمل.

لا سبيل لإدراك روح الزن عن طريق المعرفة الكُتبية أو التفسيرات العلمية. ولا معنى للمعرفة، لأن عاداتنا الذهنية تخضع لمفاهيم الأداة والموضوع، والسبب والعلة والمحتمل واللاممكن ولأنماط منطقية تبدو لنا بديهية. لكن تأملاً طويل المدى، يمكن أن يمتدّ على مدى سنوات، من شأنه أن يخلّصنا من هذه الأنماط ويهيئنا لفتح مفاجئ: الساتوري.

التشكيك في اللغة والمحسوس وواقع الماضي الذاتي وماضي الآخر، بل وحتى وجود بوذا، هي ذي بعض الأنظمة التي ينبغي للمريد أن يلتزم بها. في بعض الأديرة، تُستخدم صور الشيخ لتأجيج النار كما أن الكتب المقدسة قد تعرف نهاية رديئة. كل ذلك يمكن مقابلته بالحكمة المقدّسة: «الحرق يقتل لكن الروح تحيي».

ومدرسة الزن لا تعترف بالنظام الجزْمي، وترفض أيضاً عبادة تماثيل بوذا من حيث المبدأ، بل ترى أن وجود بوذا نفسه لا أهمية له.

وبالمقابل، فهي تساعد النظرة الأصيلة للعالم والتمرين الجسدي

والروحي على التأمل والتحكم في الزمان والمكان، على الخروج من الأوهام التصوُّرية، وتمكّن عبر حدس فوري من إدراك طبيعة بوذا الموجودة في كل واحد منا. يُعلِّم الزن الإنصات بعمق للصمت الداخلي وذلك بتنمية ضبط النفس والوعي بالقلب وعياً صافياً بدون «أنا»، لأن «الأنا» متقلب وليس له وجود مستقل. إن الإنسان الذي يجعل من نفسه مركز العالم يستنفد قواه في سباق لا طائل منه؛ فمركزية ذاته تفسده وتبعده عن الكون الذي هو جزء منه.

إن إقامة الصمت داخل الذات لا تعني اعتزال العالم، بل بالعكس اعتناقه للشعور به وعيشه. في هذه الطريق الوعرة، تنقلب البديهيات في لمحة بصر. يقول المثل البوذي: «الذين يتكلمون لا يعرفون والذين لا يعرفون لا يتكلمون ». وشيوخ الزن ليسوا من أهل الإطناب ويشككون في قيمة اللغة ويعتبرون الكلام مبهماً، كما لا يعبؤون البتة بالامتثالية ولا يهتمون باتباع التقاليد والمفاهيم النمطية. إنهم يجتازونها بحرية. ولأن الزّن عسير المنال، فيمكن تناوله بطرق مختلفة حسب التعاليم.

قال أحد شيوخ الزن لمريديه: «يمكنني أن أقودكم إلى المسْقى، لكن لا يمكنني أن أشرب بدلاً عنكم» لأن الظمآن هو الذي يجب أن يرتوي بنفسه ويعمل بتجرّد ومثابرة وحرية حتى لو كان ذلك يؤدي إلى نوع من الشعور بالشك. يدرّب الزن على التخلي عن الذات بزرع

الانسجام بين الجسد والروح. وإذا كان يصعب تحديده ، فإنه لا يحمل غرابة ويمكن اعتباره حسب التسميات « اشتغالاً داخلياً على النفس» أو «فلسفة استبطانية» أو «فن تأمل الباطن».

لا ينبغي للذهن أن يركّز على أي شيء إذ لا يمكن رؤية القلب مباشرة بدون سكينة الذهن المطلقة. فن الوجود واللاوجود متلازمان من منظور مبدأ الفراغ العزيز على قلب الماهْيانيين. كان بوذا ينادي «بعدم الاعتقاد أن الشيء له جوهر أو أن ليس له جوهر». وهكذا فالمصير الفردي ليس له أدنى أهمية.

إن العمل يكمن في التفكيك لا في التركيب، أي تفكيك الرغبة في الوجود لأن الطريق الأمثل يرفض أي تفاضل ويرفض تفكيك الحساسية المزدوجة والتخلي عن الأفكار النظرية، ومقاومة الاضطراب الشعوري والارتباك الذي يصيب الروح، بحيث يجب نبذ الأنانية سواء كانت فطرية أو نتيجة للتجارب السابقة.

يجب احتضان اللحظة الراهنة دون تجاهل واقع الوقت. الربيع كالصيف، والخريف كالشتاء، فكلها مواسم جيدة. والحكمة هي عدم التوقف عند الماضي ولا الارتماء نحو المستقبل؛ فالمقاربة الزن تقوم على تثمين كل ما يحدث في الـ «هنا» والآن. «العيش في الحاضر هو الحفاظ على صفاء الفكر على شاكلة مرآة لا تكدرها آمال ولا مخاوف

ولا توقعات ولا حسرات حتى لا تظهر إلا ما نرى فيها ولا نحكم إلا على ما نرى[26] . ورغم وضع قوانين صارمة، فإن ممارسة «الزن» لا تختلف عن الحياة نفسها. يجب أن يكون الوعي ساكناً وحاضراً في كل لحظة، في اليقظة، وفي العمل وعند الوجبات وفي كل حركة وسكنة. التحكم في النفس يوجد في الإجراءات العادية اليومية. «عندما أمشي، أمشي، وعندما أنام، أنام». في هذا السياق، طلب مريد يوماً من شيخه أن يتولى تربيته، فسأله الشيخ: «هل تناولت غداءك؟»، أجاب المريد: «نعم تناولته»، فرد الشيخ: « فلتغسل أطباقك إذن ! ».

تعتبر التربية المباشرة من الشيخ إلى المريد، مثل الماء الذي يسكب من إناء في إناء آخر، على قدر بالغ من الأهمية. وأفضل النصائح لا تغني عن الشيخ. «لا ينبغي تسلق الجبال الوعرة دون مرشد»[27]. إن التعلق عامة، و«بالأنا» بخاصة، يخلق الفوضى والاضطراب.

والمرحلة الأولى إذن هي عدم التعلق، ثم لا ينبغي بعد ذلك التعلق بعدم التعلق ثم لا ينبغي أخيراً الاشتراط بفعل عدم التعلق. وهذا دليل على أن الحقيقة لا يمكن الإفصاح عنها وأن «شيخ الزن» الذي اكتشفها لا يسعه إلا اعتزال عالم المظاهر الزائفة. وهذا شيء ثابت يؤكد لنا أن من يدعي الحديث عن الزن فهو حتماً خارجه وأن كل «أستاذ الزن» لا

(26) دوم أيلريد غراهام، الزن المسيحي، باريس، بوشي/ شاستيل، 1965، ص. 154.

(27)م .لاسال، الزن، طريق الفتح، باريس، ديسلي دو برووير، 1990، ص. 156.

يعدو أن يكون ساذجاً أو أفاقاً (يصعب اختيار أحد البديلين فيما يخص المتحمّسين الغربيين للزن)[28].

الممارسات

«الفراغ هو الشرط الضروري للتبادل بين الداخل والخارج»[29].

استوحت التقنيات الجسدية والنفسية للزن من الطاوية واليوغا الشيء الكثير (نذكر على سبيل المثال التمارين العينية التي تساعد على التخلص من الإرهاق الجسدي والنفسي). وعندما يشرع الرهبان في تلاوة مقاطع من سوترا اللوتس[30]، فإن الموجات الصوتية تعتبر أكثر أهمية من الفهم.

1 - التأمل

«التأمل في البوذية هو الوسيلة المثلى للخلاص. فالاهتمام الكلي ينصبّ ليس على «فعل شيء» عبر إجراء إيجابي، وإنما على التأمل وعلى الانضباط الذهني. والهدف هو مراقبة العمليات الذهنية من خلال

(28) روني سيفيرت، ديانات اليابان، باريس، المنشورات الجامعية الفرنسية، سلسلة «أساطير وأديان»، 1968، ص. 55.

(29) جاك بروس، الزن والغرب، باريس، ألبان ميشيل، 1999، ص. 39.

(30) نشيد لبوذساتنا المعروف في الهند باسم الفالو كيتسفيرا وفي الصين باسم غويانين، وهو نصر هام ومشهور عند البوذيين المهايانيين. وقد عرف هذا النصر في فرنسا منذ القرن التاسع عشر بفضل ترجمة عالم اللسانيات المتخصص في تاريخ الهند أوجين بورنوف (1801-1852).

تأملها، وبالتالي فإن الفكر البوذي متشرب بما نسميه بعلم النفس، إذ يمزج بين الميتافيزيقا وعلم النفس بطريقة لا مقابل لها في الغرب»[31].

يتميز الزن عن المدارس الروحية الأخرى بوضع التأمل في قلب ممارسته. بدعم من التركيز الذي يحفز على كسب الطاقة، وبالتنبه والصبر اللذين يشحذان الهمة، يساعد التأمل على إطلاق المشاعر والإفراج عن الأفكار والعواطف والتخلي عن الأنا وبشكل مفارق الكف عن السعي لبلوغ هدف ما للوصول إلى مرحلة من الوعي دون أداة ولا موضوع. والتأمل هنا ليس كما يظهر في التعريف الغربي باعتباره «تفكيراً من شأنه أن يعمق موضوعاً باستفاضة».

إنه طريق كمال يستخدم الجسد كأداة، كما أنه عامل ضروري لتحول الوعي. التأمل يحرر من كل التصاميم الذهنية ويقضي على الغضب وحدة الطبع والكراهية والانتقام. ولا يتعلق الأمر بمجرد الجلوس للنزوع إلى السكون وتأمل الفراغ وإنما ببحث الذات عن طبيعتها الحقيقية مع الإبقاء على الوعي دون تفكير. في هذا الإطار، يكتشف الممارسون المبتدئون سيلاً من الأفكار الجنونية التي تنمو بسرعة، والتي يفصح عنها التأمل تدريجياً قبل أن يخفف من وطأتها.

إن التأمل ليس تمريناً بدنياً فحسب، بل هو «رؤية دون رغبة»، أي رؤية مباشرة تقود إلى السير قُدماً إلى الأمام وحضور في الذات وفي

(31) إدوار كونز البوذية، باريس، بايوت، 1955، ص. 20.

العالم يتيح استيعاب الفرد في شمولية الواقع. يراقب الذهن الأفكار دون اتباعها أو صيانتها، كما أن المتألم لا ينبغي له أن يترك ذهنه في راحة أو في فتور. إنه، باللجوء إلى رقة القلب، عليه أن يتعلم التصرف دون تعلق والتحرر من الآراء المسبقة والأنانية والأحكام الأخلاقية. أن يكون المرء متنبهاً في كل الظروف دون اعتزال العالم، ذلك ما يدرَك بالممارسة التي هي مفتاح هذا الباب بدون باب. إن هدف التأمل هو الإفصاح للممارس عن طبيعة بوذا فيه.

2 – الـزازِن

ممارسة الزازن هي التأمل جلوساً، وهو الوضع الذي كان عليه سيدهارتا غوتاما عندما بلغ حالة بوذا. وهذه الممارسة تقتضي التركيز والانضباط الذهني والجسدي والمعنوي. كتب دوجين في مؤلفه شوبوغنزو: «ما الزازن؟ إنه الوجود في اللحظة ذاتها، فيما وراء كل وجود في الكون، وبلوغ أبعاد بوذا والعيش في هذه الأبعاد. بعبارة أخرى، الزازن هو فقط الدخول عميقاً في تجربة بوذا بغض النظر عن البوذيين وغير البوذيين»[32].

يقتضي الزازن الجلوس بهدوء وصمت أمام حائط على وسادة (زافو) وترك التنفس يسري في وضع سكون تام مع الإبقاء على العمود

(32) ديشيمارو، الزن وفنون القتال، باريس، سيغيرس، 1977، ص. 116.

الفقري مستقيماً (فأهم شيء في هذه الجلسة هو البحث عن العمودية). في وضعية القرفصاء حسب الوضع التقليدي اللوتس أو نصف اللوتس، ينبغي ترك العينين لا مفتوحتين تماماً ولا مغلقتين تماماً، والمعصمين على أعلى الفخذين وإخلاء الذهن من أي فكرة. تجدر الإشارة إلى أن غياب الأفكار لا يعني عدم التفكير في شيء بل التفكير لحظة الحاضر بلحظة الحاضر في تجرُّد مستمر والتصرُّف بشكل مركَّز وحذر إزاء النفس والواقع. لا يتعلق الأمر بإماتة الجسد ولا حتى بنوع من الرياضة، ولكن بطريق يؤدي إلى سرّ السلام والسعادة. يقول دوجين: «لمواجهة النفس، ينبغي التخلي عن كل شيء للحصول على كل شيء»؛ ففي نظره «الزازن هو مدخل الراحة والسعادة ».

الزازن كالمرآة، يعكس ماهية المُمارس ويمكِّن من الاستسلام التام «للأنا» للوصول إلى الصحوة (ساتوري)؛ فالزازن يستدعي الكائن في شموليته. «أقول في كثير من الأحيان: فعل الزازن كالدخول في تابوتك لأنك في نهاية المطاف تتخلى عن كل شيء»[33] .

بين حصتين من الزازن، تدوم كل منهما غالباً بين ثلاثين وأربعين دقيقة، يستأنف الممارسون تأملهم بحصة من المشي (كين هين) منتظمة بإيقاع التنفس البطيء الخاص بتقليد سوطو أو السريع الخاص بتقليد رنزاي.

(33) المرجع نفسه، ص. 103.

3 – التنفُّس

كل شهيق وكل زفير لن يرجعا أبداً. وكلا الفيض والارتداد يساهمان من منظور الحكمة الشرقية وحكمة الشرق الأقصى، في إيقاع الكون. والهواء يسري فينا من الولادة إلى الموت. يعلم الزن التنفس العميق من أجل التوصل إلى الفهم الكامل للنَّفَس الحامل للحياة؛ فالمحافظة على التركيز حول التنفس ينير الذهن. خلال الزازن يتباطأ إيقاع التنفس وضربات القلب، فيستقبل الدم والأعضاء الداخلية الأكسجين بشكل أفضل، وهذا الزفير الذي يضغط على الكتلة الجوفية يسبب تحسُّنا داخليا وينمي طاقة كبيرة على مستوى الخصر والكليتين والوركين.

يسمى التنفس بطريقة زازن «ركوب التنين»، فمن استطاع بهدوء التحكمَ في تنفسه، والقيام بتنفس معتدلٍ ومضبوطٍ وطبيعي وبدون تكلف، فإنه يتحكم في ذهنه في الوقت نفسه. ويعتبر التنفس طاقة حيوية ذات أهمية قصوى في الزازن، فيصبح نَفَساً وقاعدة غير مادية بدونها لا توجد حياة روحية، وكان بوذا ينشر ضمن تعاليمه أن التنفس طويلاً كان أم قصيراً ، يجب أن يبقى كما هو.

الفصـــل الخامـــس
مظاهر الــزن في الفنون والحضارة اليابانيـة

يعتبر العمل الفني، قصيدة كان أو لوحة أو قطعة موسيقية، بمثابة «نشيد صياد»، فما وراء الكلمات والأشكال والأصوات، تجربة مباشرة وحدسية لواقع لا تدركه أي مقاربة استدلالية»[34].

ورغم قلّة ممارسة الزن في اليابان المعاصر، فقد ترك بصمته في الحضارة اليابانية واحتل مكانة مرموقة في الفنون الكلاسيكية بما فيها فنون القتال. كما أن روح الزن تجذّرت بعمق في الحياة الدنيوية وساهم تأثيرها في تغيير أوجه عديدة من المجتمع الياباني. في أراضي هذه الجزيرة، خلقت هذه المدرسة التفكرية عناصر من التأمل توحي بمجموعة من الأحاسيس الداخلية من أجل تحرير الفكر وتوسيع الرؤية. ويبدو فن السيطرة على الصدَف وتقبل الطارئ مجالاً مثالياً لمحبي الزن. كما أن احتفالية الشاي (شانويو) أو «طريق الشاي» (شادو)، وتنسيق الزهور (إيكيبانا) أو «طريق الزهور» (كادو)، والتشكيلات المعدنية والنباتية للحدائق و«طريق البخور» وكذا الرسم والشعر والمسرح والخط، كلها تعبيرات مختلفة عن التجريد الجمالي للزن الياباني.

إن إدراك الوحدة في كل شيء يوجد في كل المجالات.

(34) س– ليس، كتابات حول الصين، باريس روبير لافون، 1998، ص. 595.

هكذا، فإن «الدو» أو «الطريق» وهو ما يعادل الداوو أو الطاوو الصيني، يعتبر سلوكاً فلسفياً وتربية للوصول إلى إتقان فن ما أو تقنية ما. كما أنه يحتفي بالحركة ويعبر عن قواعد فكر جمالي ويحترم التوحد مع الطبيعة وعلى نحو أكمل مع الكون. كل هذه القيم يتقاسمها أتباع الزن الذين يعتبرون الفن تأملاً أيضاً.

I- طريق المحارب (بوشيدو) أو فن الساموراي (35)

يدعو المذهب البوذي إلى اللاعنف. وينتمي الزن إلى التقليد الماهاياني الذي يعتبر الرحمة ركيزة أساسية وحافزاً على عدم الأذى والإقلاع عن إيذاء أي كائن أياً كان، لأن الضرر بالآخر، مثل الضرر بالنفس لا يولد إلا المعاناة. وبدلاً من جعل فنون القتال في خدمة الزن، فإن الطبقة العسكرية اليابانية ستستمد شجاعتها وبسالتها خلال عهد كاماكورا (1185–1333م) وعلى مدى قرون عديدة من الزن.

وعلى الرغم من التناقض الصارخ، فإن البوذية الزن ستؤثر بقوة على المُثُل العليا للساموراي الذي يجسد قمة العنف سواء على أرض المعركة أو على مستوى المقاطعات المستولى عليها. هكذا، يبدو «البوشيدو» أو «طريق المحارب» رمز الشجاعة والشرف والشهامة للساموراي،

(35) ينتمي الساموراي لفئة من المحاربين التابعين لقائد عسكري. أما «البوشي» فرجل سلاح ومحارب محترف.

ويعتبر تطبيقاً عملياً لتعاليم الزن وأيضاً لمبادئ الكونفوشيوسية الجديدة التي تدعو بصفة خاصة إلى قيم الإخلاص في العمل واحترام العشيرة.

بعيداً عن الخير والشر، كان المحاربون اليابانيون في العهد الإقطاعي (ويسمون البوشي) يمجدون الموت ومن ثم فعل القتل. «قد يبدو المجال مألوفاً، وكأننا في دائرة الفتوّة المسيحية، حيث يسمح بالقتل والانتقام من منظور المحبة والغفران. لكن الأمر يختلف هنا تمام الاختلاف. لأن البوشيين لم يقوموا أبداً بحملات صليبية ولم يسعوا إلى الردّ إلى جادة الدين. و لم يحدث يوماً أن أحداً قَتَل من أجل البوذية، لكن البعض استطاع ذلك بفضلها. إن بوذية البوشي لا تفيده إلا في التحكم في نفسه وبالتالي التفوق في فنون القتال والفنون الأخرى. والزن من ثَمَّ محض أداة، أي «قارب» كما يقول بوذا، لكن لا يمكننا أن نجعله يعبر ضفافاً غير ضفافه»[36].

إن فن الخط الذي يعتبر مدرسة أخرى للانضباط والتأمل، مثله في ذلك مثل فن السيف وفن الرماية، يندرج في تربية المحاربين الصارمة؛ فبالنسبة لهؤلاء كان فعلاً التحرك وحمل البندقية لا ينفصلان عن فن الخط والنو، والسادو وبالطبع عن أي حركة في الحياة اليومية[37].

(36) س. ك، كولم، السعادة– الحرية، البوذية العميقة والحداثة، باريس، المنشورات الجامعية، 1994،ص. 108.

(37) ك. زوغاري، تاريخ الحركة في مدارس فنون القتال الكلاسيكية، اليابان المتعددة، فيليب بيكيي، 2006، ص. 400.

تشكل الاستقامة والصبر والطاعة آداب السلوك والأخلاق لهؤلاء المحاربين الشجعان. وهم يتحلّون بالشهامة ويمتثلون للأوامر باسم الحق. وقد جعل الساموراي، بحساسيتهم الخاصة إزاء مبادئ الانضباط والتحكم في النفس عبر التأمل، من الزن طقسهم الديني الخاص؛ فاستمدوا منه تقنيات تقوية الطاقة والهدوء والإرادة للإقدام على ما هو أساس وعدم الخوف من الموت.، ذلك أن الحياة والموت ينتميان إلى ذات الحقيقة. في نظر العديد من محاربي إمبراطورية الجزيرة، يبدو الزن ظاهرياً شكلاً مُرَوحَناً من الشينتو وهو الدين الأصل لليابان الذي يقدّس قوى الطبيعة. تمكن السكينة الداخلية المحاربين من تهذيب دوافعهم العدوانية.

إن العمل على إفراغ الذهن وعدم الانزعاج بأي فكرة، والتجرد من العدو ومن النفس، والعيش في العالم في استعداد دائم للخروج منه، كلها مواقف تعرب عن تطبيق عملي لحرية الكائن بعيدة المنال. لذلك، فلا غرابة أن تُتَّخَذ زهرة الكرز شعاراً للساموراي وذلك لما ترمز إليه من سرعة زوال الحياة، فهي هشة لدرجة أنها تتلاشى قبل أن تذبل وتضمحل في أوج شبابها ومجدها.

في يابان القرون الوسطى المنهوك بالقتال المتواصل وبسلسلة من الصراعات السياسية بين الطبقات الأرستقراطية»، وبينما انحازت

الطبقة الأرستقراطية بسبب ميلها للتنظيم إلى مدارس التنداي والشنغون، آثرت الطبقة المحاربة تقشف الزن. وهذا الوجه للزن «باعتباره طريقاً دون لف أو تعرّج» هو الذي حافظ على صلابة المحاربين العقلية. علاوة على ذلك، كان الساموراي غالباً ما يقصد شيخ الزن ليستمد شجاعته من الدين الذي يعلم «السير إلى الأمام دون الالتفات أبداً إلى الوراء» وكذا المبدأ الذي بموجبه تُعْتَبرالحياة والموت وجهين لوجود واحد، وكيفية نكران الذات للتوحد بالحياة»[38].

من خلال المراسلات، قام شيخ مدرسة رنزاي بتزويد الرسام والشاعر والخطاط تاكوان سوطو (1573—1645م)، سليل عائلة من المحاربين، والعارف بالكونفوشيوسية وشيخ الأسلحة للشغون توكوغاوا إيميتسو، ياغيو مونونوري (1571—1646م)، بالنصائح للخروج منتصراً من معركة. وسيكون لأحد كتبه «ملاحظات حول سرّ الحكمة الثابتة» تأثير على ممارسي فنون القتال.

خلافاً للفكر الأفلاطوني والمسيحي، فإن روحانيات الشرق الأقصى تجمع دون تناقض قوى الجسم والنفس، فحتى قبل اقتران السيف بالزن، كان الرهبان المحاربون في الجيوش الخاصة لأديرة المدارس البوذية اليابانية الأخرى يحاربون بلا هوادة على مدى قرون، ولم تتوقف هذه الصراعات الداخلية إلا في نهاية القرن السادس عشر.

(38) أ. و. واتس، روح الزن، دانغلس، 1976، ص. 109.

يكشف الزن على أن العدو الأكثر شراسة يكمن في الذات وفي أوهام الأنا. يجب مقاومة هذا الخصم بالصبر واللاعنف؛ فالعدو الخارجي ليس إلا انعكاساً للعدو الداخلي. ها هو القول المأثور يتوجه بقساوة لمحبي الحرب: «إذا هزم رجل في معركة ألف رجل، وإذا استطاع رجل آخر أن يهزم نفسه، فسيكون الفائز الأكبر هو الثاني».

II- طريق القـــوس

اكتشف الغرب المقاومة الروحية للرماية بالقوس بفضل يوجين هيرجيل (1884—1955) Eugène Herrigel، أستاذ الفلسفة الألماني الذي ألَمَّ بتعاليم الكيودو أو «طريق القوس» خلال إقامته في طوكيو سنة 1923، وذلك للوصول إلى فهم الزن. ولقد درس على يد أوا كينزو (1880—1939) أحد أهم الشيوخ البارزين، فتدرّب على هذا النظام الذهني والبدني الذي يتطلب جلسة مضبوطة، وحركية مناسبة وتنفّساً محكماً. الجسم والعقل كلاهما مشحوذان، كما أن الرماية بالقوس تُعنَى بالانسجام الداخلي للكائنات والأشياء. يمكن اعتبار طريق القوس بمثابة تمرين على السكينة يجبر النّبّال قبل إطلاق السهم، على أن يكون في حالة من الاسترخاء والحرية. القوس والسهم والهدف لا وجود لها. لا يجب التفكير في القوس عند التصويب. يلزم التسديد أبعد من الهدف الظاهر لأن ملامسة المرمى ليست هي الغاية. «من كان بمقدوره إطلاق

قذيفة بترس الأرنب ووبر السلحفاة، وهذا يعني الوصول إلى قلب الهدف بدون قوس (ترس) وبدون سهم (وبر)، فذاك شيخ بالمعنى الكامل للكلمة، شيخ الفن دون فن، بل هو نفسه الفن دون فن ، وهو في الوقت ذاته شيخ ولا شيخ. مع هذا التحول، بوصفه حركة بلا حراك، ورقصاً بدون رقص، اندمج فن الرماية في الزن»[39].

III– طريـق الشـــاي

استمد اليابان من الصين عادة شرب الشاي. كانت مجتمعات الشان في عصر الدولة الوسطى تستعمل أوراق نبتة الشاي (وهي شجيرة تنتمي إلى فصيلة الكاميليا) كمحفز للتأمل لساعات طوال. كان الرهبان يتناولونه لمقاومة النوم وتصفية العقل. عندما استقر رجال الدين اليابانيون خلال القرنين الثاني والثالث عشر في الصين في معابد شان، اكتشفوا فن الشاي كمرادف للانسجام الذي سيصبح فيما بعد طريق الشاي (شادو). جلب الراهب إيزاي إلى اليابان نبتات من الشاي ومن وقتها شاع استعمال مسحوق الشاي الأخضر (ماتشا) مع الزن. لكن، بدأ الأمر في القرن التاسع عندما أهدى الراهب سيشو، مؤسس مدرسة البوذية الباطنية اليابانية تانداي لإمبراطور اليابان كامو تينو الشاي إثر عودته من الصين، كما زرع البذور الأولى في الأرخبيل.

(39) ي. هيرجيل، الزن في فن الفروسية والرماية بالقوس، دوفري، 2003، ص. 110.

«بدأ وضع المراسيم الاحتفالية مع راهب من رهبان الزن يدعى موراتا شوكو (1423—1502م). وبعدما اكتسب المعارف من مستشاري الشغون الفنيين الذين جعلوا منه خبيراً في قائمة الأدوات الثمينة لاجتماع الشاي، أدخل طريقاً بوذياً هو الزن في التعاطي لتناول الشاي. بعبارة أخرى، حدس أن الصحوة، بالمعنى الديني للكلمة، يمكن أن توجد أيضاً في مزاولة احتفالية الشاي. وبالالتفات إلى الجانب الشعبي والبسيط للاستهلاك عند الرهبان، غيَّر موراتا شوكو كثيراً المظهر العام لحفل الشاي، فابتدع حفلاً تتم مراسيمه، وفقاً لتعاليم زن، في مكان بسيط ومغلق صالح للتأمل.

وهكذا كانت بداية احتفالية الشاي (وابي– شا) في القرن الخامس عشر. ومنذ ذلك الحين جعل التقليد شيوخ الشاي يفصحون عن قربهم من مدرسة «الزن البوذية»[40] .

يعتبر الوابي مبدأ جمالياً وأخلاقياً يحتفل باعتدال وبساطة بجمال النقص. وتمثل كؤوس الشاي من طراز راكو [وهو لقب عائلة من الفخارين ويعني حرفياً «فرح»]، بشكلها البدائي ومادتها الخشنة مفهومي «الوابي» و»السابي». وهذا المصطلح الأخير، الغريب عن الفكر الغربي، يُشيد في تسليم هادئ بآثار الزمن كمصدر للتدهور. كما

(40) أوان ديسكومبس، في الخط واحتفالية الشاي المرئي والمقروء. نص وصورة في الصين واليابان. الناشرون: أ. كولان – ستفانس، س– ساكاي، فيليب بيكي، 2006، ص. 50.

أن السابي يحتل مكانة كبيرة في مسرح النو والهايكو. والعبارة اليابانية وابي– سابي التي تشير إلى مفهوم مستمدّ من تقاليد الزن والطاوية، يثير الشعور بالوحدة. «إن عبقرية فن الفخار في طريق الشاي هو تناول الأشكال، ليس حسب قاعدة محدّدة يمكن أن تغيير أسلوبها وإنما كأحجام قابلة للامتداد أو الانضغاط تحدّد بفراغها أو استعمالها ويمكن تكييفها لتلبي بدقة مستلزمات حساسية شخصية»[41].

لا يمكن للثروة الروحية أن توجد في بذخ فاحش. في روح الزن، يليق التقشف بالجمال. وقد عمل شيخ الشاي سين نو ريكيو (1522– 1591م) وهو أيضاً شاعر وخبير في تنسيق الزهور، على تقعيد طريق الشاي الميال إلى الاعتدال. وكان ريكيو يقول دوما «الأقل هو الأكثر». جلس شخص في مكان هادئ، أشعل ناراً وأخذ ينصت إلى صوت الماء الذي يغلي، ثم راح يدق مسحوق الشاي الأخضر (ماتسا) بقضيب من الخيزران (شازن)، ويعد الشراب في جلسة مستقيمة وبحركات بسيطة ثم شرب الشاي. هذه اللحظة تمكن من الوعي التام بالوقت الحاضر والشعور بالهدوء في الحركة. إن رغوة وزبد ورائحة الشاي تهدئ عطش الجسد والفكر وتمكن من العثور عن مسلك الطبيعة.

وهذا الطقس الاجتماعي الذي يعبر عن الفراغ والامتلاء يشكل

(41) ت. يوبا، تاريخ احتفالية الشاي وخزفيات الشاي في اليابان. اليابان نهكة وسكينة. باريس، المتاحف، 1995، ص. 31.

أيضاً مثالاً حياتياً ومقياساً للقيم. وكان الشيخ الكوري الموقر هيودنغ يعتبر أن «طريق الشاي بدون باب» وأنها مفتوحة للجميع شريطة أن يكون «القلب مركزا ».

IV- طريق البخــور

في طريق البخور (كودو)، تسمى عملية «الشم» «الإنصات». وذلك يعني الإنصات بصمت وملء القلب بالمشاعر التي تعترينا لكي نتشبَّع بمشهد شمّي. وكانت ممارسة التمتع بالروائح وإمكانية التمييز بين العناصر المؤلفة لها شأناً دينياً قبل أن تصبح حكراً على الطبقة الأرستقراطية والمحاربة. أما اليوم فهي تجربة روحية وأبيقورية على حد سواء؛ ففن البخور يرتبط أصلاً بالبوذية.

في اليابان، عند مدخل المعبد أمام المذبح داخل الدير، تعبق الفضاءات المقدسة بروائح البخور، وهذه العطايا في مراسيم البوذية الزن تعتبر أيضاً طريقة من التأمل تصاحب ممارسة الزازن، ويساهم بخارها السحري الزكي على تهدئة العقل وتعزيز التركيز، كما أن فوحانها الفعال يساعد الأشخاص على معانقة فراغ العالم، وهو مفهوم أساسي للممارسين في مدرسة زن. كتب فيمالاكيرتي نيرديسا في نص سوترا (وهو نص من المركبة الكبرى أو الماهايانا) أن «تعاليم بوذا تنتقل عبر الروائح دون حاجة للكلمات».

ففي الهند القديمة القديسة، قبل ميلاد بوذا غوتاما، كان الحكماء يعتبرون أن سماع البخور يحترق يقوي إدراك الوعي، لأن البخور كالوجود البشري في هشاشته وزواله، يفنى على مدى مرور الوقت.

٧- فــن البسْتنــة

تعتبر الحدائق أداة وموضوعاً مجازياً وتقع داخل أسوار معابد الزن للتشجيع على التأمل. في هذه الفضاءات التأملية، تُحَرِّر البساطة من الكماليات، أما الطبيعة المستحضرة بشكل تجريدي، فإنها تجد هناك مظهرها المطلق. على النقيض من الحدائق الفرنسية المرتبة بدقة هندسية، فإن البستان هنا يعكس قلب الإنسان. انطلاقاً من فرضية أن قلب الإنسان هو دوماً مشهد في حد ذاته، فإن مصمِّمي المناظر لا يسعون لتقليد الطبيعة. لذلك، يدعو الزن، تحت تأثير الطاوية الصينية إلى اللجوء إلى الطبيعة بوصفها جوهر الجمال.

وتتخذ هذه التراكيب أشكالاً تختلف بتعدُّد المبدعين في اتحاد وثيق بين هذه الطبيعة والثقافة. تُعتبر الحديقة فضاء مواتياً للصمت والخشوع ويبلور بهدوئه الديري الطابع العابر والزائل لكل شيء.

في أديرة الزن، يتم اختيار الأحجار بعناية خاصة فتصبح حركة البستاني زهداً، أو على حدّ تعبير هنري ميشو Henri Michaux في مؤلفه «بربري في آسيا» (1967): «إنه يلم الأمواج أيضاً ، بحيث يشعر المتأمل

والمتفحّص مثلما الزائر العادي أن هذا الفضاء تعبير عن السكينة».

هناك أماكن عديدة في كيوطو، «فلورانسا الشرق الأقصى» تكشف عن حضور قوي لهذه الحدائق التي ينبعث منها انسجام باهر. على السفوح الجنوبية لجبل أراشيما، غرب المدينة، تعتبر حديقة سيهو–جي، معبد عطور الغرب، أو ما يسمى عموماً كوكيديرا (معبد الطحالب) أول حديقة للتأمل الزن، رغم أنها نباتية بالأساس وأن التجريد ليس ميزتها الأولى، وذلك استثناء يؤكد مثاليتها.

وهذا الفضاء يدعو لاكتشاف معنى الأشكال من خلال طحالب بسيطة ترمز إلى الصفاء النباتي وتوحي بتأثير الوقت وتسجل مرور المواسم. وقبل أن تتخذ شكلها الحالي، شهدت حديقة سيهو–جي تحولات عدة.

خلال عهد نارا (710–794م)، أقام الواعظ الشهير، رجل الدين جيوكي من طائفة هوسو– شو (668 – 749م) في موقع قصر الأمير الإمبراطوري شوتوكو معبداً مخصصاً للطقوس الدينية لأميدا، وهو الاسم الياباني لبوذا أميتبها «النور اللامتناهي» الذي يجسد طاقة اللوتس. بعد ذلك، تم تحويل الفضاء الذي صار خراباً إلى معبد الزن من قِبل الراهب موزو سوسيكي (1275 – 1351م)، الذي عُرِف بعد وفاته باسم موسو كوكوشي، وهو من أعاد رسم التصاميم وكان من كبار شيوخ الزن الذين

ينتمون إلى مدرسة رنزاي. وإذا كان ينحدر من عائلة أرستقراطية، فإن هذا الشيخ الموقّر لم يكن مهندساً معمارياً وخبيراً بستانياً فحسب، بل كان أيضاً أديباً ورساماً وخطاطاً ومؤلفاً ينظم الشعر ويكتب في الفلسفة.

في طفولته، بدأ بدراسة طريق شنغون وهي مدرسة بوذية باطنية. في سن التاسعة عشرة، قرر ترك الطقوس الدينية لعيش بساطة الزن كما تلقاها عن الراهب الصيني إيسان إيشيني. ورغم أن موزو كان يفضل العزلة فإنه، بفضل مكانته الشخصية، سيصبح المرشد الروحي للهوجو، وهم طائفة من أكابر المحاربين في عهد كاماكورا، التابعين للإمبراطور دو– ديغو والشغون أشيكاغا تاكوجي الذي كان أحد أهم الأتباع المخلصين لمذهب «الصحوة». أقام الشيخ المصلح موزو سوسيكي، نزولاً عند رغبة الأكابر، عدة معابد في ستة وستين مقاطعة من الإمبراطورية الجزيرية، كما ينسب إليه أيضاً إنشاء سبع حدائق أخرى ومنها المشهد الشهير تينريو– جي غرب كيوطو.

في القرن التاسع عشر، ومع نهاية عصر إيدو، استولت الطبيعة البرّية من جديد على أرض سيهو– جي النديَّة كثيرة الأعشاب، وبدلاً من اقتلاعها، لم يتردد الرهبان في العناية بها.

ومن وقتها، لم يتغير شيء. في ذلك الموقع، توجد في الجزء الأسفل حديقة متنزّه، مركزها حوض ماء، يطابق شكلها الإيحائي رمز فكرة

الكوكورو الذي يعني القلب باللغة اليابانية. مزركشة بجزر من السكينة، ترمز الحديقة إلى طبيعة الإنسان الداخلية، فالماء محبب طبيعياً للحكماء نظرا لصفائه. على منحدر التل، في الجزء العلوي من الحديقة، تمثل تركيبة من الأحجار شلالاً. وبمواجهة منزل متواضع، ستُحدث هذه الحجارة ثورة على الرموز الجمالية لتقاليد المناظر الطبيعية، التي توحي بترتيبها إلى الطبيعة الفسيحة، فهذا بركان، وذاك جرف صخري وتلك جزيرة. لكن الأسلوب جديد لأنه تخلى عن كل الإجراءات الشكلية وتحرَّر من كل القواعد والاتفاقات لدعم الصحوة الروحية. إنه درس مفتوح تعلمه إيانا الحياة، أي درس في الزن تتخلّله أنفاس من الشينتو الياباني والطاوية الصينية.وهذا «المنظر القاحل» (كاريسانسوي) المعروف عموماً باسم حديقة الزن، لأنه تعبير نحتي عن هذه الفكرة، يسجل مرحلة في تطور مفهوم الحدائق. وهكذا ستحدث سيهو– جي أول حديقة من حدائق الزن، تأثيراً عميقاً على أفْضية عديدة صُمِّمَت لاحقاً وخُصِّصَت للتأمل.

صحيح أن المؤلف المتخصص في فن الحدائق «الساكوتيكي»، المنسوب للأرستقراطي تاشيبانا نو توشيتسونا، قد أعطى في القرن الحادي عشر توجيهات عدة في تنسيق المعادن، ولعله أقدم مؤلَّف في البستنة في العالم. وتظهر الحديقة المصمَّمة فيه عبارة عن تجلٍّ ديني

لطيف ومشرق، بالمفهوم الشرقي، بحيث لا ينفصل عن الفلسفة التي تلهم سلوك الحياة: فبوصفه رمزاً للحياة، يؤدي هذا المكان إلى التأمل الحقيقي الذي يتماثل مع تأمل عمل فني، أي الحديقة ذاتها»[42] .

لا شك أن الحديقة الرمزية ريوان- جي، أو «معبد تنين السلام» المصمَّمَة في القرن الخامس عشر والمنسوبة إلى الرسام الشهير سوامي (1472 – 1525م)، تعد أشهر منظر قاحل. كما أن سوامي صمم حديقة من العشب بديتوكو- جي بمعبد ريوجين- إن، وهذا التركيب يتكون من بحر من الرمال البيضاء مملس بعناية، وخمسة عشر حجراً مرتباً في عدة مجموعات بطريقة لا تتيح للعين أن ترى إلا أربعة عشر حجراً.

ينفتح هذا التركيب من الأحجار البرية المجمعة على تأويلات متعددة. وهو أيضاً تصور رمزي يقترب من التركيب التجريدي. يعزز مسار هذا المنظر القاحل، بوصفه نموذجاً مصمماً للتفكر التأملي، مشهد الامتلاء والفراغ. إنها لعبة أبعادية تذكّر بوهم الحسيات ولكن أيضاً بعدم قدرة الإنسان، أياً كانت الاتجاهات، على تجاوز بعض الحدود. في العاصمة الإمبراطورية، اسْتُلهِمت الحديقة المحاكية للطبيعة في الجناح الذهبي (كينكاكو- جي) من سيهو- جي. وكان رئيس الدير الشرفي الأول هو الشيخ موزو سوسيكي بناء على طلب مريده يوشيميتسو.

«إن حدائق الأحجار أو الرمال، بتصميمها التجريدي، تكشف

(42) م. فانتوري فيريولو، حدائق اليابان، باريس chêne - ، منشورات شين، 1993، ص. 16.

عن عمق وقوة العقل وعن حيرة الإنسان الأبدية بين الصورة الخارجية الشكلية وبين التجريد الداخلي المتأصل في الطبيعة»[43].

وهذا العالَم المعدني، المتكون عموماً من أحجار مجمّعة بشكل غير متماثل يوحي بالشعور بالحركة، ومن الرمال والحصى يحفز الوعي بالفراغ كمعادل لمحو الذات، ويُمَكّن من خرق أحجبة الوهم.

VI- فن الخطوط

إذا كان الفن البوذي يستطيع أن يثير الاهتمام ويهز المشاعر ويؤثر ويسْتهوي أي مشاهد طارئ، فإنه لا يمكن أن يُفهَم على هذا النحو وليس مُوَجَّها للفحص من الخارج. عادة، لا يدعو هذا الفن للمراقبة بل للمشاركة فيه.

يمكن القول إنه وُجد ليُتأمل، لكن ليس بالمعنى الغربي للكلمة، بل بالمعنى الاصطلاحي والدقيق للغاية، علماً أن ما ترجم بكلمة «التأمل» هو المصطلح السنسكريتي سامادي، والذي يعني حرفيا التركيب»[44].

لا يعتبر الفضاء الفارغ من تقاليد الزن، في منظور الفنانين الملهمين، مظهراً من مظاهر العدم ولا مجرد بياض ولكن صدر الأشكال كلها،

(43) فريديرك، اليابان الحميم، باريس، منشورات لوفيلان، 1986، ص. 99.

(44) س-ك. كولم، السعادة - الحرية، البوذية العميقة والحداثة، باريس، المنشورات الجامعية الفرنسية، 1994، ص، 91.

كما أنه لا يسبب قلقاً ولا رعباً، فحركية الفضاء الفارغ الفعالة والتعبير عن الانسحاب يفصحان عن امتلاء الكائن وجوهر الوجود.

ورغبة من فناني الزن في الافتقار، عمدوا إلى عدم استعمال الألوان تقريباً، ومع ذلك، تبدو هذه الأخيرة بطريقة سحرية جلية حسب كثافة الأسود. فبضربة واحدة، مثل الخطاط، يمكن للرسام أن يصور خطاً واحداً بفرشاة جافة تقريباً، عابراً الطلاء دوماً بطريقة لا تماثلية، مُوَلِّداً في اللامرسوم الفراغ الذي جابته تيارات الكون حيث تنشأ وتموت كل الممكنات، وحيث يمتزج الزمان بالمكان»[45].

يكشف جمال الحركة المستوحى من تقاليد الرسم الياباني المتجذِّرة في الفكر الطاوي عن تصويرِ وممارسةِ فعلٍ من دون انقطاع أو قصور. وباعتبار طريق الحبر ورقة بيضاء، وفكراً فارغاً فإنه يتطلب قبل أيِّ خط السعي إلى السلام بمجرد تحضير الحبر واحتكاك العصي بسطح الحجر وإضافة قليل من الماء واختيار الفرشاة والجلسة أمام ركيزة الورق. لا يمكن لاستعمال المواد وحركة اليد أن يكونا تقريبيَّيْن. تحمل روح الحركة أثَرَ نَفَسٍ عالٍ يفوق التقنية.

إن الرسم يستخف بالتصوير المشتمل على النوادر؛ فالإلهام الآني يستبعد كل التفاصيل التي لا داعي لها كما أن الأعمال تمثل حالة داخلية

(45) ج. أوستي، الفن البوذي الياباني ما بين القرنين الثاني عشر والتاسع عشر، صور الجمال طريق المحو، معرض جانيت أوستي، 1982، ص. 12.

تعلو عن المكان والزمان. هكذا فإن أبسط رسم لِقَشَّةِ عُشبٍ يكشف عن انعكاس بوذا وعن ذواتنا وذلك بجعلنا نلمس حياة العشب.

« ما من عمل فني، وفق منظور الفنانين شان، إلا ويشبه الحياة، فهو فريد وغير قابل للمحْو ويجب أن يُمْسَك ويُحَقَّق أثناء طيرانه. قال أحد شيوخ شان: «يتعلق الأمر بتسجيل لحظة من الحقيقة البصرية بتلك الآنية نفسها التي تصاحب الانبهار الروحي»[46].

توحي البساطة الشديدة أكثر مما تؤكد وذلك لجعل جوهر الموضوع المرسوم شاعرياً. ينتقل السطر الخطوطي بحرية نتيجة التغيير والحركة العفوية. وها هو سباق الفرشاة المُلِحَّةِ تارة والمُلامِسةِ للورق بِحنُوٍّ تارة أخرى، يَتَّبِع مساراً سانحاً للقياس.

تتماهى الخطوط مع الكون في تقلب سَلِسٍ للظلال فيما يتحرر الشكل على شاكلة القلب من كل ما هو متعارف عليه. وعلى الرغم من عدم اكتمال الشكل، فإنه يحيل على الممارسة وعلى قيمتها الروحية. لذا لا يعبأ فنانو هذا التقليد بجمالية الأناقة، فعدم إمكانية تصحيح لمسة الحبر على الورق يقتضي التركيز وإرخاء القبضة في الوقت ذاته. بين القوة والمرونة، لا ينشغل الفنان إلا بالطاقة؛ «فهو ينحتها كسمات بشرية حية شديدة الكثافة حيث البصمة الاجتماعية والفظاظة البدنية وأثر العمر

(46) ر. لينسين، الزن، حكمة الشرق الأقصى: فن عيش جديد؟ باريس، مارابوت، 1969، ص، 210.

وكذا الصورة الكاريكاتورية لذات كل إنسان يُنْظَرُ إليه عبر زاوية معينة؛ لا تؤدي إلا إلى استخلاص الشخصية الروحية.

وكل هذه الواقعية تبقى، فعلاً وبطريقة غريبة، بسيطة وقوية لأن الفكر يغلب عليها، أو بالأحرى يمكن القول إن حدة الواقعية ليست إلا تعبيراً عن الحدة الروحية ،كما أن الصورة المادية لا تبوح بهذه الكثافة إلا لأنها صورة فكرية وأخلاقية قبل كل شي»[47].

أعرب الراهب والفنان زن سيشو، (1420–1506) شيخ اللافيس الكبير، في أسلوب قاس وشديد عن اكتمال المشاهد الممثلة : «في لوحات سيشو الحبرية، تعبر التصاميم الأولى المحبرة جداً وأعماق الصور المائية الشاحبة عن إيقاع للعالم يمكن للعين أن تطوله.

عندما ندخل في اللوحة عبر النظرة، تسقط الحدود بين إيقاعات العالم التي تصبح آنذاك واحدة. الرسم بالحبر وفن الخط هما التعاليم التي لقننا إياها سيشو وسيسون وبعدهما هاكوان. تتحدث أعمالهم عن الوقت وأعيننا تدرك إيقاعهم الداخلي وتنقله إلى نبضنا الخاص؛ فلا يتعلق الأمر بالفهم وإنما « بالوجود في الوقت نفسه» « (...) في رسوم الشيخ الزن تعتبر سرعة الحركة وأثر الفرشاة شبه الجافة التي تستعيد «عقدة» من حبر لتستمر في السير عبر «اللامرسوم» نحو انتعاش طاقة

---

(47) ر. غروسيت، حضارات الشرق، الجزء الرابع: اليابان، دار النشر غ. غريس وشركاؤه، 1930، ص. 60.

الخط السوداء، حافزاً لنشعر في أنفسنا بهذا الإيقاع حتى لا يبقى هناك سوى وقت واحد»[48].

ولد هاكوان زنجي (1768–1885م) بقرية حارا التي تقع عند سفح جبل فوجي، وكان رئيس دير وخطاطاً وكاتباً ورساماً ورجل دين، فهو من أسس مدرسة رنزاي الحديثة. كان معروفاً بتمرده و عدم توانيه في انتقاد حياة النبلاء الباذخة، كما كان لا يتردد في التوجه ببساطة إلى العلمانيين. تكشف السطور الأولى من ديوانه «نشيد التأمل» عن توجيهات تربوية سهلة الاستيعاب :

«كل الكائنات الحساسة، هي في الأصل بوذا:
مثل الثلج والماء،
بدون ماء، لا يمكن أن يكون هناك ثلج ،
بدون كائنات حساسة، أين نجد بوذا؟
يبحث الناس عن الحقيقة،
جهلاً منهم بقربها الشديد.
بعيداً يبحثون ويا للأسف.
إنهم مثل ذاك الذي، وسط الماء
يصرخ من العطش متوسلاً من يمده بالماء
إنهم مثل نجل رجلٍ غني يتجول بين الفقراء»[49] .

أَلّفَ شيخ اليابان العظيم هذا معظم أعماله في وقت متأخر، وكان الهدف منها نشر تعاليم الزن بين أكبر عدد ممكن من الناس. كما كان

(48) ن. دولاي، لعبة الأبدي والزائل، فليب بيكيي،2004، ص، 80–79.

(49) د. ت. سوزوكي، موجز في البوذية الزن، ديفرفي، 1981، ص، 160.

يرتكز في تعليمه على منهج الكْوان. عندما أمسك الفرشاة أول مرة، كان يبلغ من العمر أكثر من سبعين سنة، فاشتهر بغزارة مواضيعه وحرية أسلوبه. تتميز لوحاته ذات القوة الخارقة، بطابع نشيط وسردي وكان يحلو له أن يقارن نفسه بمعتوه، هو الذي عرف الصحوة عندما كان يتأمل هذا الكوان: «هل للكلب طبيعة بوذا ؟». ينتمي الراهب الزن سينغاي جيبون (1750 – 1837م) أيضاً إلى مدرسة رنزاي. كان وريث هاكوان الروحي وكان أيضاً خطاطاً وشاعراً ومتأملاً.

عاش في الريف في محافظة مينو بين عائلة من الفلاحين، لبس الخرقة وهو طفل صغير. وبعد أن كرَّس جزءاً من حياته للدراسة، التحق بالشيخ غيسين زنجي. كان مشهوراً بوداعته وتواضعه. وأصبح الرئيس المائة والثلاثة والعشرين لمعبد الزن شوفوكو الكبير، الذي شُيد سنة 1995 من قِبل إيزاي بهاكاتا بجزيرة كيوشو جنوب اليابان. بعد سن تجاوز الستين، تخلى عن هذه المهمة ليختلي في معبد كيوهاكوان وينجز عدداً من الرسوم واللوحات ولوحات فن الخط. لا توحي لوحات معرضه «آثار حبر» المرحة والهزلية بأي تسلسل هرمي للقيم.

وغالباً ما تتناول أعماله، بخفة دم، مواضيع تقليدية مثل بوذا التاريخي والآلهة البوذية اليابانية ثم شيوخ العصور القديمة ولكن أيضاً الشاعر والراهب الزن الشهير باشو (1644–1694م) وكذا مواضيع

مستقاة من الحياة اليومية للعالم القروي. و لقد جرت العادة على تسمية الأعمال التشكيلية ولوحات فن الخط لرهبان الزن في فترة إيدو (Edo) بـ(زنغا zenga).

وبفرشاة بسيطة مغموسة في الحبر ووفقاً لمبدأ الاعتدال، نقل رسامو عهد موروماشي من أمثال سيسو(1420—1506م)، وشوبون(؟—؟) وكانوا ماسانوبو (1434—1530م) نظرة غير أكاديمية للفن التصويري.

VII– فن الشعــــر

«عندمايلمع البرق
رائع هو ذلك الذي لايفكر
الحياة غر»

باشو

على غرار البطريرك السادس باشو أو هاكوان، البارع في فن الارتجال، نهج العديد من الشيوخ البارزين طريق الشعر للتعبير عن الصحوة وذلك من وراء الكلمات. كثيراً ما يقترن الهايكو بالزن، وهو شعر مكون من ثلاثة أبيات وكل بيت من خمسة أوسبعة مقاطع صوتية تخترق كومضة من حدس قوة اللحظة الحاضرة الحية. على الطريق الذي نحن فيه، ثمة أبسط الأشياء: أزيز، برغوثة، صوت قباقيب، ظل فراشة،

زهرة برية، قطرة ندى، عاصفة من الرياح، سحابة جامدة.. وكلها جزء لا يتجزأ من المطلق. بمجرد تجاوز الجانب الظاهري القصصي، يثير الهايكو بلمسة بعيدة عن كل رومانسية وخالية من أي طموح، نوعاً آخر من الإنصات: الإنصات إلى ما لا يُدرك، والإنصات إلى إيقاعات الحياة. إنه عبارة عن نغمات زهيدة تشيد بالصمت على نبرات صغرى، مستعيدةً تجربة عابرة. «الهايكو ليس بقصيدة وليس بنوع أدبي. إنه يد ممدودة، وباب منفرجة، ومرآة نمسحها. إنه طريق الجوع إلى الطبيعة، إلى طبيعتنا التي هي أيضاً طبيعة القمر وزهرة الكرز والورقة الميتة.. باختصار، إلى طبيعة بوذا فنيا»[50].

ينتمي الهايكو (والكلمة تجميع لهايكاي- هوكو) ويعني«مقطعاً ذا طابع مازح» إلى الشكل الكلاسيكي للتانكا، وهو قصيدة قصيرة تتكون من خمسة أبيات وتحتوي على خمسة وسبعة وخمسة فسبعة ثم سبعة مقاطع؛ ورغم أن اللغة حرة، إلا أن القصائد القصيرة تُلَمِّح أكثر مما تُعبِّر: «إن نفي «التوسيع» هنا جذري، فالأمر لا يتعلق باعتقال اللغة في صمت ثقيل كامل وعميق وروحاني، ولا حتى في صمت الروح الذي ينفتح على التواصل الإلهي (فالزن بدون إله)؛ ما هو مطروح لا يجب أن يفسّرَ لا في الخطاب ولا في نهاية الخطاب (...)»[51].

---

(50) ن. ويلسون روسو، عالم الزن، باريس–ستوك، 1976، ص. 121.

(51) ر. بارث، إمبراطورية العلامات، باريس، فلا ماريون، 1980، ص. 96.

كل مؤلفي الهايكو ، دون تمييز يتماثلون مع الطبيعة ويصبحون ما يتأملون:

«في الصقيع الأبيض للدرب
مشرق منسي
هندباء برية.

بوسون[52]

«ليلة من الخريف
أحلام، شخير
جراد»

سيوو[53]

«الوحدة
برد الربيع
ولا شيء آخر»

سينغيو[54]

ولد الشاعر ما تسو باشو (1644—1694م) في مقاطعة إيغا سابقاً التي

(52) م. كيود، نمل بلا ظل. كتاب الهايكو. أنطولوجية النزهة، باريس، فيوس، 1978،

(53) المصدر السابق الذكر.

(54) س. أتلان وز بيانو، الهايكو. أنطولوجيا القصيدة القصيرة اليابانية، باريس، غاليمار، 2002.

تقع في ولاية مي الحالية. ويمثل هذا الشاعر رحلة المصوّر فوق «الممر الضيق لنهاية العالم». بعد تعرفه على التأمل الزن والشعر الصيني على يد أحد أقربائه وهو الشيخ بوشتو (1643 – 1715م) تظاهر خاصة أثناء السفر بارتداء لباس الرهبان» دون أن يعتنق الدين رسمياً.

وفي الواقع، كان يبحث عن فن عيش تكون فيه الحياة نفسها عملاً فنياً، لأن «الهايكو ليس في الحرف ولكن في القلب» (...)» [55].

لقد أبدى الزاهد الجوال، سليل عائلة متواضعة من الساموراي عدم اكتراثه بالحياة الدنيا وفضّل لمْلمة مواضيع إلهامه من الجمال المتأصل في الأشياء والكائنات، وذلك بنقل اللحظة في اللحظة، في إشارة إلى الفصول والطبيعة. فالمناظر الطبيعية تلهمه، لذلك اختار باشو نبرة بسيطة وتأملية خالية من الأساليب المعقدة:

«تحت زهور عالم عائم
بمعية أرزي الأسمر
ومشروبي الأبيض».

«ونحن نَدين له أيضاً بتعريف المبادئ المستمدة من أصول الجماليات اليابانية ذاتها، والتي حكمت الهايكو طوال تاريخه وهي: الإخلاص، والخفة والموضوعية والحنو على كل المخلوقات الحية، ولكن أيضاً

---

(55) ر. سيفيرت، باشو، جرائد السفر، منشورات فرنسا الشرقية، 1988، ص. 12.

بتعريف السابي (البساطة و السكينة والوحدة) والوابي (الجمال المجرّد في انسجام مع الطبيعة) و أخيرا وهذا عنصر حاسم تقوم عليه كل فلسفة من هذا النوع–الفيكي–ريوكو وهو التوازن العادل بين مبدأ الخلود والظهور المفاجئ لحدث عابر أو تافه»[56].

VIII– الفن المسرحي

يعلي مسرح النّو (مختصر كلمة ساروغاكونونو) من شأن الفراغ المستلهم من البوذية ومن طاقة الوضع المأساوي. ويُعتبر هذا المسرح همزة وصل بين الجماليات والروحانيات. وكان لعروضه التي تؤدى أصلا في المعابد دور تعليمي وتأهيلي.

وتماشياً مع القواعد التي وضعها المُنَظِّر والمسرحي زيامي موتوكيو (1363 – 1443م) الذي أصبح راهب الزن لمدرسة السوطو سنة 1422م، فإن هذا النوع الكلاسيكي من المسرح الياباني يربط بين الأدب والرقص والموسيقى والغناء. ويؤدى هذا الفن بطريقة مشذَّبة حدَّ التجريد، من طرف شخصية رئيسية تكون دائما مقنعَّة (الشيت يعني «الذي يفعل» أو «الذي يتصرّف») وشخصية ثانوية غير مقنعة (الداني «الذي على الجانب» أو«الذي ينتظر») والشخصيتان كلاهما تتحركان في مسرح مربع على خشبة عارية مصنوعة من الأرز محددة بأربعة أعمدة.

(56)س. أتلان و ز. بيانو، المرجع السابق، ص. 209–208.

يعتبر النّو أشد قرْباً إلى حفل الشاي منه إلى المسرح كما يعرفه الغرب. يؤدي الممثلون رقصة دون رقص، إذ يُشكِّل معنى الحركة واللاحركة، وما يقال وما لا يقال، و الأعلى والأدنى معمار العرض. فالأداء الحركي، ورغم تأثُّره الشديد بالزن فإنه ليس أساسياً.

بل يمكن أن يُختزل في نادرة. إن قوة العرض تعتمد على الصمت أكثر من الكلمات. ولعل الرزانة و ضغط سلوك إيمائي متزن إلى أقصى حدّ يساهمان في تأمل الجمهور. « لكي يتحقق هذا اللقاء بالفعل، يجب على المنفذ، إزاء نفسه وعبر انضباط فكري صارم، أن يتوصل أخيراً إلى حالة من «الرؤيا التباعدية» التي تَقْرَب إلى التأمل ليجد نفسه هكذا في سكينة تجلب سكينة المشاهد»[57] .

يرى بول كلوديل في النو «نوعاً من التمثيل الاحتفالي بالمشاعر الإنسانية. كما أنه أيضاً تربية للانتباه ومدرسة للحركة. وهذه الجوانب كلها تُمنحُ لنا على مهل وببطء لتُبَين عن معناها الكامل»[58].

IX– طريق الزهــور

يبدو أن أصل فن ترتيب الزهور معاصر لفن الشاي، أي أنه يرجع إلى القرن الخامس عشر. تَنْسِب الأساطير أول ترتيب للزهور إلى أولئك

(57) كاكيشي كاكواكي، «شيخ الزن»، البيان 42 للجمعية الفرنسية لأصدقاء الشرق، 199، ص. 4 .

(58)ب. كلوديل، «نزهة عبر الأدب الياباني»، مجلة باريس، غاليمار، 1925 ، ص. 10.

الأولياء البوذيين الذين كانوا يجمعون الزهور التي يقصفها الإعصار ويضعونها في مزهريات مليئة بالماء تعبيراً عن عنايتهم الفائقة بكل الأشياء الحية »[59]. إن طريق الزهور (كادو)، الذي اكتسب شعبية كبرى عبر ما يسمى بترتيب الزهور كان في الأصل مرتبطاً بحفل الشاي.

وكانت التراكيب الزهورية تصمم بادئ الأمر بقاعات الشاي ثم صارت تزين البيوت اليابانية التقليدية، وبعد ذلك أصبحت توضع في نوع من المخادع الصغيرة (توكونوما) لتعرض إلى جانب الكاكومونو (لفيفة لرسم عمودي). وإذا كان الولع بهذه الكائنات المتغيّرة الزائلة في الأول حكْراً على شيوخ الشاي، فإنه صار في القرن السابع عشر فناً مستقلاً ينقسم إلى تيارين: الأول يعتمد على المذهب الطبيعي والثاني على المذهب الشكلي. وهذا الطقس الجمالي العابر يستبعد الوفرة والتناظر، ويُعد وسيلة لإدراك الحياة الروحية، كما يرمز إلى التناغم بين الإنسان والطبيعة؛ فالزهرة المتفتحة تمثل الإشراق والبرعم المستقبل...

X- فن الطبــخ

دخل "الشوجين ريوري"، وهو طبيخ نباتي ، إلى اليابان في القرن الثاني عشر. وتنتمي كلمة «شوجين» إلى مصطلحات البوذية وتعني «التدريب بهمّة»، و«الابتعاد عن السهو»، و«تصفية الجسم». ومع

(59) أوكاكورا كاكوزو، كتاب الشاي، باريس، بايوت، 1931، ص. 138.

مرور الوقت، دخلت هذه الأكلة البسيطة التي كانت تقدم في معابد الزن في صفوف فن الطهي. يركز هذا المطبخ، حسب فصول السنة والمنتجات المحلية، وتبعاً لمبدأ البوذية الذي ينهى عن قتل أي حيوان، على التمازج المتناغم للألوان لكن أيضاً للأذواق والتراكيب. فهو يعكس حواراً مستمراً بين الجسد والأطعمة والطبيعة.

أما تقديم الأطباق، فيشبه لوحة طبيعية. «يجب أن يجذب الطعام العين كما تفعل لوحة أو زهرة، كما ينبغي أن يذيع رائحة لا تقتحم حاسة الشم بل يجب أن تكون نافذة وعسيرة على التحقق. إذا لم يتوصل الغذاء من سحر النظر والشم، فإنه ليس جيداً في منظور كل ياباني يحترم نفسه، فالياباني لا يلتهم الأغذية وإنما ينخرط في تجربة حسية حقيقية. لذلك فهو يحتاج إلى درجة عالية من التركيز. وتعتمد أهمية حفل الشاي برمّتها على هذا الموقف النفسي»[60].

والشوجين ريوري يحسّن «طريق القلب»، لأنه وفقاً للتقاليد الرهبانية، يوفر الراحة والهناء اللازمتين للممارسة. يشكل الفطر والأعشاب نباتات الجبال البرية وخضراوات الموسم مشوية كانت أم مسلوقة أو مقلية، وكذا حساء الميزو والأرز والتوفو أطعمة فاخرة، وذلك من خلال عناية شديدة. وسواء كان أبيض كالثلج أو من السمسم (غومادوفو) أو مجففاً (كويادوفو)، فمن المرجح أن التوفو نشأ من برد

(60) ر. ستنبيرغ، المطبخ الياباني، تايم لايف، 1970، ص. 138.

شتاء جبل الكويا في أحد معابد مدرسة شينغون، كما أنه يعوض اللحوم في المجتمعات الدينية نظراً لأهمية البروتينات التي يتوفر عليها. وقد تخدع مهارة الطباخين، عبر التفنن في التحضيرات وكيمياء المذاقات والتركيبات، ذوق الزائرين الذين يعتقدون أنهم يستسيغون أطباقاً من لحوم. إنه تمرين يعتمد على الخيال والروح. يستبعد هذا المطبخ عن الوجبات الثوم والبصل وكل الزنبقيات الأخرى لأنها تلهب الأعصاب. وتحكي التقاليد اليابانية، أن راهباً مسناً في يوم من الأيام، جاء سفينةً لشراء الفطر، وكان طباخا في معبد من معابد الزن، فطلب دوجين منه أن يبقى في السفينة لبعض الوقت للحديث معه حول الزن.

لكن الراهب المسن أجاب «لا يمكنني البقاء لأنني ينبغي أن أتكلف بوجبة الغد»، فقال دوجين: «في ديركم، سيكون هناك حتماً شخص ما يعنى بالمطبخ خلال غيابكم».

أجاب الراهب: «المطبخ من اختصاصي، لماذا علي أن أتركه لغيري؟» ورغم ذلك، لم يدرك دوجين على الفور عمق معنى هذا الرد، لذلك أصر على القول: «المطبخ؟ اختصاصكم؟ ولكن لماذا لا تنهمكون بدلاً من ذلك في التأمل أو دراسة الكتب المقدسة، لماذا لا تتخلون على الأعمال المنزلية؟».

ضحك الراهب المسن قائلاً: «آه أيها الطالب الغريب، إنه من

المؤسف أن لا تفهم جوهر التخصص ذاته»[61].

من وقتها، أدرك دوجين أهمية الإتقان في كل الحركات البسيطة التي تتخلَّل اليوميات، الأمر الذي جعله يقول: «يحقق الطباخ روح الطريقة بالتشمير على ساعديه».

لذلك، لم يهمل في بحثه الروحي الانكباب على مسألة دور الأغذية الأرضية في الممارسة العلمية. «عندما تقوم بغسل الأرز أو الخضراوات، نظفها بيديك في حميمية نظرتك الخاصة بجد وأمانة، دون أن ينفلت انتباهك ولو لحظة واحدة، لا تكن دقيقاً في شيء ومهمِلاً في شيء آخر، احرص على أن لا تفوتك قطرة واحدة من محيط الأفضال، اعمل على إضافة حبة غبارك على قمة جبل الأعمال النافعة.

يقول قانون الأديرة: «إن لم تكن النكهات الست (المر، الحامض، الحلو، الحار، المالح، المسيخ) في تناغم، وإذا غابت الفضائل الثلاث (المرونة—الخفة، النقاوة—النضارة، الرعاية—الدقة)، فإن الطبق لا يجدر بالتقديم إلى الجمع». عندما تنظر إلى الأرز، تأمل أيضاً الرمل. إذا مر ناظرك ذهاباً وجيئة متفحصاً التفاصيل بدقة، دون أن يفتر فكرك، عندئذ تصبح الفضائل الثلاث تلقائياً في اكتمال، والنكهات الست تتفتّح من تلقاء ذاتها»[62].

---

(61) ر. ليسين، الزن: حكمة الشرق الأقصى، فن عيش جديد؟ باريس– ماريوت، 1969، ص. 48.

(62) دوجين، تعليمات للطباخ–الزن، باريس، لوبرومنور، 1994، ص. 19–18.

يتابع دوجين نصائحه بدقة وإحسان، دون أن يفصل أبداً بين اليومي والمقدس: « المهم في الطبخ هو التمسك بموقف فكري صادق جداً يحترم المنتجات كلها ويتعامل معها دون حكم على مظهرها سواء كانت خشنة أو مرهفة. فلنتذكر المرأة العجوز التي حصلت على فضائل لا حصر لها لأنها أهدت بوذا بقلب خالص الماء الذي غسلت به أرزها. ولنتذكر الملك أشوكا الذي أهدى لحظة احتضاره نصف ثمرة مانجو إلى الدير. فهو بزرعه هذا الجذر الأخير من الخير، حصل على التنبؤ بحصد الثمار في الحياة المقبلة. إن الرابطة التي نصنعها مع بوذا لا تُقَوَّم حسب حجم الهبة وإنما حسب صدق القلب. إن ممارستنا تقتضي أن نكون صادقين في جميع أعمال الحياة»(63).

XI- أهمية عدم الجدية

كتب بودلير في مقالته المخصّصة لجوهر الضحك قائلاً: إذا كان الحكيم في الغرب لا يضحك إلا وهو يرتجف، متوقفاً «على حافة الضحك باعتباره غواية»، فعديدة هي النوادر المُسَلية التي تشهد على روح الدعابة لدى شيوخ الزن. إنهم يقهقهون على ألاعيب الرهبان الشباب، يمازحون المريدين الغارقين في الرصانة ولا يحرمون أنفسهم من الاستمتاع بالضحك من الأعماق، لاسيما حين يلجؤون إلى المزاح

(63) المرجع نفسه، ص. 36.

على حساب المُنَظِّرين. «وهكذا وبصفة عامة، فإن الدعابة في الزن تعبر عن المتعة الهادئة التي تنبثق عن تجريد الأشياء من كل مغالاة وتفاخر»[64]. يزيل الضحك الأفكار الأنانية ويحرج الأنا المتغطرسة والسطحية كما يمنح، كهدية للآخر، لحظة مشتركة من السعادة.

يمكن للضحك أن يبدّد غيوم الأوهام عبر التفاتة ساخرة تذكر بأن المظاهر غالباً ما تكون خادعة. لذلك تعتبر النكتة وسيلة تربوية. تذكر لوحات الراهب سينغاي، وهي بلا قواعد ولا إطار جامد، كنايةً عن الطابع الزائل للوجود، بأن الطريق الباطن يسخر من الجدية. لذلك يُحذِّر سينغاي من المظاهر ويضرب مثل ضفدع كبير جالس مع عبارة حجرية مضحكة أعارها للضفدعيات: «إذا كان بالإمكان أن نصبح بوذا بفضل التأمل جلوساً.... أنا (الضفدع)، الجالس دوماً».

إن انقلاب القيم موضوع مفضل لدى السالكين في الطريق لأن مفعوله مضمون ما دام يؤثر على العوارض كما على الوعي. لذلك لا شيء يُحرَّم ولا حتى الكتابة البرازية.

في هذا الإطار، يُحكى أن شيخاً من أكابر شيوخ الزن الصينيين عَبَر نهر اليان –تسي كيانع لزيارة أحد أصدقائه. وكان هذا الأخير غائباً، فانتظر برهة ثم قفل راجعاً بعدما ترك هذه الرسالة: «أنا الشيخ الكبير، الثابت الذي لا يمكن حتى لرياح الكون الثماني أن تزعزعه ولو شبراً،

(64) ن. ويلسون روس، عالم الزن– باريس، ستوم، 1976، ص. 166.

جئت لأراك». عندما جاء الصديق، أضاف للرسالة: «كل ما قلته لا يساوي ضراطاً!»وأعاد إرسالها لصاحبها.

قطع الشيخ النهر الكبير ثانية في غضب شديد، ودخل على صديقه كإعصار وراح يوبخه بشدة:

- من أنت لتسول لك نفسك أن تحدثني هكذا؟

فأجابه الصديق:

-هكذا إذن! مجرد ضراط جعلك تقطع اليان-تسي-كيانغ، أنت الذي تتحدى أن تزعزعك رياح الكون الثماني ولو شبراً!»[65].

تخفف فاعلية الهزل، بتعريتها للحالة البشرية، ثقل الحياة الذي لا يطاق، إذ القهقهة تشفي. كان تايزن ديشيمارو يتسلى أحياناً كطفل وهو يقلد شكاوى الرهبان الآخرين ويسخر منهم بلطف ودعابة. حتى مسألة الموت والحياة تُتناوَل بدعابة والمبادئ يُعَلَّق عليها بشكل مضحك، كما أن الشيوخ لا يقيمون وزناً للتهريج التعيس الأخرق موقعين أبطالهم في الهاوية. بالمقابل يستعملون الدعابة دون تحفظ وبحرية ومتعة، إذ يعتبرون ابتسامة الفرح الخالص، مثل الوردة المتفتحة، تولّد طاقة فعالة حية، عزيزة على قلب أتباع الزن. «سأل سالك مبتدئ: «إلى أين نحن ذاهبون؟»، فأجاب الحكيم: «إلى حيث نحن» .

---

(65) س. دوريكسر، مائة مفتاح لفهم الزن، باريس لوكورسي دوليفر، ر 1991. ص242.

الفصل السادس
تقاليد الزّنْ في العالم المعاصـر

بعد الاستسلام سنة 1945، التزم اليابانيون بخوض معركة جديدة وإعادة بناء بلاد في حالة خراب وتحت الاحتلال الأمريكي. و هكذا صار الرجوع إلى السيادة الوطنية (1952م) يتصدّر أولويات العشريات اللاحقة التي عرفت نمواً كبيراً أبعد اليابانيين عن الروحانيات القديمة. فَقَدَ الزن أَلَقَه في الأرخبيل، فقد أرغم الإصلاح الزراعي الأديرة على التخلي عن أراضيها،كما أن التصنيع الضخم أنتج عدداً كبيراً من المعتقدات والممارسات الفردية.

فازدهرت طوائف جديدة حتى الثمانينات بما فيها الطوائف ذات الطابع البوذي، مثل السوكا–غاكاي (سليلة مدرسة نيشيرين) و تكيَّفت مع تغييرات المجتمع.

بعد أواسط التسعينيات، أدت الأزمة الاقتصادية التي تلت انفجار منطقة المضاربة إلى إثارة الاهتمام مجدّدا بالروحانيات، إذ لم يعد الازدهار المادي يظهر كعقيدة سائدة، فأصبح الزن وسيلة للخلاص، لدى فئة من المجتمع تبحث عن معنى للوجود وسط ضياع المعالم... ومع ذلك بقي الزن أكثر جاذبية في الغرب أكثر من اليابان.

I – المؤسسون الأوائـــل

في بداية القرن العشرين، وحدهم المستشرقون والمغامرون فكرياً كانوا يعرفون الزن. لكن شوطاً كبيراً قطع في غضون عقود قلائل!.. واكتشفت الولايات المتحدة مذهب الصحوة في منتصف القرن التاسع عشر، مع مجيء أعداد هائلة من المهاجرين الصينيين على الساحل الغربي. في سنة 1893، خلال المعرض العالمي لشيكاغو، نظم البرلمان العالمي للديانات لأول مرة لقاء حضره ممثلو البوذية.

وفي هذا الجمع، كشف الراهب شاكو سوين (1859 – 1919) للأمريكان تعاليم الزن لمدرسة رنزاي. وسيبقى مساعد الشيخ دايزيتز تيتارو سوزوكي (1870 – 1966) أكثر من عشر سنوات في أمريكا الشمالية، ونجحت ترجماته الإنجليزية لكتب تعنى بالبوذية، وكذا مؤلفاته الخاصة ومحاضراته، في تعريف الولايات المتحدة بطريقة الزن. وهو نفسه الذي سيؤلف بين 1930 و1934 مختصراً عن البوذية «الزن»[66]، في شكل مقدمة رئيسة وصلت إلى جمهور كبير من القراء على جانبي المحيط الأطلسي. وقد اشتهر بجهوده الكبيرة ودوره الرائد في نشر طريقة الشرق الأقصى. ومع ذلك لم يتم اعتبار هذا الناقل أبدا كشيخ في اليابان. «لا يتوانى بعض الخبراء اليوم في مؤاخذته على كونه كان داعية للمذهب أكثر منه مبسطاً للعلوم.

---

(66) نشر في فرنسا سنة 1940 من قبل جون هيربيرت، ومتوفر لدى دار النشر ألبان ميشيل.

وهكذا، وحسب العارف بالبوذية بيرناد فور Bernard Faure فإن «هناك نوعاً من التسامح المتعجرف في الطريقة التي قدم بها سوزوكي الزن لأهل الغرب»(67).

* **شانريو سوزوكي** (1905-1971).

لقد منح مجيء شانريو سوزوكي إلى كاليفورنيا في أواخر الخمسينيات منظوراً جديداً للممارسين غير الآسيويين على الساحل الغربي للولايات المتحدة. ويحظى هذا الشيخ الياباني من مدرسة سوطو باحترام كبير في بلاده. وقد كان يتحاشى الخطابة وهو الذي يتحدث اللغة الإنجليزية بطلاقة، كما كان يحرص على وضع الزازِن في قلب تعليمه.

وكان يلقن روح الممارسة على هدى دوجين «يجب أن نتحلى بروح المبتدئ الجديدة، المتحررة من كل تملُّك، أي روح تعرف أن كل شيء يتغير باستمرار. فلا شيء يوجد حقاً إلاَّ بصفة مؤقتة في شكله ولونه الحاليين. كل شيء يصبّ في شيء آخر دون أن نستطيع القبض على أي شيء.

قبل نهاية المطر، نسمع تغريد الطير. تحت الثلج الكثيف، تبزغ زهرة الثلج وبراعم جديدة.على الساحل الشرقي، سبق لي أن رأيت الراوند، وفي اليابان نأكل الخيار في فصل الربيع»(68).

---

(67) ف. لونوار، لقاء البوذية والغرب، .باريس، فايار، 1999، ص. 247-246.

(68) س. سوزوكي، روح الزن، روح جدي، .باريس، لوسوي، 1977، ص. 180.

أسس شانريو سوزوكي مركز الزن بسان فرانسيسكو ومركز زن موتين بتساجارا سبرينغ فوق وادي الكرمل وهو أول دير زن في الولايات المتحدة.

* **كودو ساواكي** (1880-1965). يعتبر كودو ساواكي رمزاً معاصراً لتقليد سوطو، وكان يحرص على الابتعاد عن شكليات المجتمعات الرهبانية. كان شيخاً لتايزن ديشيمارو ويدعو إلى البساطة والدقة والحرية. وقد ساهم في تطوير مدرسة سوطو وعلى دأبه سعى تايزن مايزومي في إشاعة الزن.

* **تايزن ديشيمارو** (1914-1982). ولد تايزن ديشيمارو بساغا في اليابان في عائلة عريقة من الساموراي وهو مريد ووريث سرّ كودو ساواكي الذي علمه ممارسة الزازن في غير معزل عن الحياة الاجتماعية. بعدما درس العلوم الاقتصادية، دخل ديشيمارو عالم الأعمال في نهاية الحرب. قبل وفاته، عينه كودو سواكي راهباً وطلب منه تعليم الزن في الغرب. في سنة 1967 وصل تايزن ديشيمارو إلى فرنسا وسنه يناهز 53 سنة حيث أسس بباريس جمعية الزن الدولية وأكثر من مائة مركز في أوربا، من بينها معبد الجندرونيير La Gendronnière في منطقة اللوار والشار Loire–et–Cher وهو أعظم دوجو للزن في الغرب وأول دير

لمدرسة سوطو في أوروبا افتتح سنة 1979.

وحسب فليب كوبيPhilippe Coupey، أحد مريديه :« لقد كان فيه شيء من بانتاغرويل Pantagruel.بمسحة من مونطاني Montaigne. كان سليل الأرض وابن العالم. وفي منظوره تتجاوز الثمار دوماً وعد الزهور. يمكنه أن يكون متشدّداً أو مكيافيلياً، لكنه يبقى دوماً مركزاً ومستقيم الرأي. كان يجمع بين الصديق والأستاذ المتمرّس والحكيم. وكان في واقع الأمر ساحراً يفتتن به الإنسان والحيوان و ما من أحد عرفه إلاّ وأحبه»(69). كان يحلو لديشيمارو أن يردِّد بأن الزن ينبغي أن يكون خَلاقاً مثل نبع حي. ومن أهم الأشياء التي كان يحث عليها هذا المربي الاستثنائي الذي يستعمل الفظاظة والدُّعابة على حدّ سواء، هو الوضع الصحيح في زازان دون أدنى حركة لا من الداخل ولا من الخارج بحثاً عن السكون التام.

أسرَتْ لغته المباشرة وجاذبية شخصيته العديد من المستمعين من بينهم من أصبح من أتباعه كجاك بروس 1922 – 2008 (Jacques Brosse). أمام أفول ممارسة الزن في اليابان، كان الشيخ ديشيمارو مقتنعاً بأن الغرب بانفتاحه سيشكل مستقبلاً للشرق الأقصى وحافظاً قيّماً لهذا التقليد. وقد اعتبر الدكتور فليكس نيف (1816—1893) Flix Nève في وقته أن «الأوان آن لتنخرط القوى الأوروبية أكثر من ذي قبل في الشؤون

(69) إ. روميلوير، مرشد الزن، باريس، كتاب الجيب، 1997، ص، 100.

السياسية لآسيا ولتطور المجموعة الهائلة من الدول البوذية وتدفعها نحو حركة جديدة»[70].

* **سونغ ساهن** (1927 – 2004). يعتبر الراهب سونغ ساهن أول شيخ سون كوري دَرَّس بالغرب. ولد في شمال شبه الجزيرة الكورية من أبوين بروتستانتيين. انخرط في شبابه في الأنشطة السياسية رداً على الاستعمار العنيف للإمبراطورية اليابانية ودَرَس الكونفوشيوسية قبل أن يكتشف البوذية. تعلّم على يد الشيخ كوبونغ، رمز السون الكبير، فأصبح البطريرك الثامن والسبعين، في سن الثانية والعشرين، على النهج التعليمي لمدرسة شوغيي، التي تفضل الإدراك الفطري عبر ممارسة الزازن والكوان.

وبعد إقامة في هونغ كونغ وإدارة معبد في اليابان لمدة تسع سنوات، توجّه سونغ ساهن سنة 1972 إلى الولايات المتحدة حيث أسس مدرسة كوان–أوم ، كما أقام مركزاً للتأمل في بروفيدانس Providence (رود آيلند Rhode Island) الذي سيصبح المقر الأساسي لمدرسته، التي توجد حاليا في أوروبا (لاسيما في بولونيا وفرنسا) ولكن أيضاً في أستراليا وجنوب أفريقيا.

في خلال مناظرة و«حوار آني»، سأله أحد الطلبة حول الحاجة إلى

(70) ف. نيف، البوذية،مؤسسها ومؤلفاتها، دار نشر شارل دونيول وبنجامين دوبرات، 1854، ص. 55.

الشيخ فأجاب: إذا كان فكرك صافياً، لا الشيخ الزن ضروري و لا البوذا ضروري. ولا شيء ضروري»[71].

* **تيش نْهات هانْه** . ولد تيش نهات هانه سنة 1926. وهو شيخ زن لتقليد تيين الفيتنامي، وهو أيضاً شاعر وداع كبير للسلام. أصبح راهباً في سن السادسة عشرة. أسس سنة 1950 معهد «آن كوانغ» للدراسات العليا في البوذية.

ولقد قادت أهوال الحرب هذا الشيخ المتأمل ليصبح ناشطاً فعالاً إذ لم يعد يتحمل الاقتصار على الجلوس في زازان بينما الآلام تتأجّج حوله، لذلك انخرط في إنشاء حركة المقاومة غير العنيفة. وفي سنة 1964، أسس مدرسة لتكوين متطوعين لمساعدة ضحايا التفجيرات ثم جامعة «فان هانه» البوذية بسايغون، وكذا دار نشر أصدرت قصائد وكتابات تدعو للسلم سرعان ما تعرضت للرقابة. في سنة 1982 أسس بمعية الراهبة تشان كهونغ قرية البرقوق (التي تتكون من عدة قرى) في الدردوني Dordogne وكذا عدة رابطات للخلوة في الفيرمونVermont وكاليفورنيا. في نظر تيش نهات هانه، لا وجود حتى الآن للزن كتقليد حي في الغرب.

«الواقع أن الزن لم يستطع بعد التجذر في هذه الأرض لأن الشروط

(71) س. ساهن، الرماد على البوذا، باريس، لوسوس، 2002، ص. 34.

الثقافية والاقتصادية والنفسية تختلف وإذا حدث وأصبح الزن يوما شيئاً حيا في الغرب ، فسيختلف شكله اختلافاً كبيراً عن الزن الشرقي. لا نستطيع أن نصبح ممارسين للزن بتقليد طريقة أكل وجلوس ولباس الممارسين الصينيين أو اليابانيين. الزن حياة، الزن لا يقلَّد»[72].

حسب تيش نهات هانه، يتم تحقيق الزن بالتجربة اليومية، هنا وهناك، من الصباح إلى المساء، ومن المساء إلى الصباح، وكذا بالنشاط في العالم، أو ما يسميه «فن العيش بكامل الوعي» لملامسة قلب الواقع هنا والآن. والتاي (الشيخ باللغة الفيتنامية) يؤكد التزامه في الحياة الاجتماعية والسياسية. وهو ظل رمزاً تاريخياً في بلده وأحد المنشقين البارزين عن النظام الفيتنامي الجنوبي الذي فرضته الولايات المتحدة، فأُرْغِم على المنفى سنة 1966. كما جسّد فكرة البوذية الملتزمة التي تشكلت خلال حرب الفيتنام برسائله الداعية إلى العدالة الاجتماعية، لاسيما عبر الأعمال الإنسانية والمبادرات من أجل السلام. والرد الوحيد على العنف هو اللاعنف في نظر هذا الشيخ الجليل.

II – البيتنــيكس الزّنْ

في بوتقة الثقافة المضادة لجيل نيويورك الجديد على الساحل الغربي، كان الكُتّاب الذين صدموا أمريكا الخمسينيات المحافظة يتعاطون

(72) تيش نهات هانه، مفاتيح للزن، باريس، جون كلود لا تيس، 1999، ص. 105.

الزن. وكانت هذه الحكمة في نظرهم تحمل جاذبية متحررة وفردانية مثيرة. كانت كتابات الرائد ديزيتس تيتارو سوزوكي وداعية الزن على الطريقة الأمريكية آلان واتس(1915–1973) تبهر أوساط المثقفين المعارضين للرأسمالية والجماعية. أما الرمز البارز في هذه الحركة فهو الشاعر والكاتب غاري سنايدر Gary Snider (المولود سنة 1930) الذي انخرط في طريقة الزن بدون تحفظ ويعتبر صديق الحكمة المخلص لجاك كرواك Jack Kerouac وآلان غنسبرغ Allen Ginsberg ، وكذا المدافع عن الحطابين والهنود الأمريكيين المهمّشين في مجتمع مادي مهمين.

تعلم غاري سنايدر اللغة اليابانية وتعرف في الستينيات على الزن بمعبد السوكوكو–جي، أحد مراكز مدرسة رنزاي بكيوطو، كما أنه درس اللغة اليابانية وترجم أمهات النصوص الحكمية في الأدب الكلاسيكي الياباني والصيني، ومن بينها مجموعة قصائد الشيخ الزن هان شان. كان يمارس التأمل عن طريق الزازان وينادي بأن «الحكمة هي معرفة روح الحب والصفاء المختفية تحت الهواجس والاعتداءات التي تسببها الأنا. التأمل هو مدخل للظواهر النفسية وهو يمكّنك من التعرف عليها بنفسك. تقتضي الأخلاق أن تُفْصِح عن ذلك في طريقة عيشك من خلال القدْوة الشخصية والتصرف المسؤول، و ذلك للتوصل أخيراً إلى المجتمع الحقيقي لكل الكائنات»[73] .

(73) الجيل الجديد، مجلة أدبية، رقم 157، فبراير 1980، ص. 10.

بعد العودة من كاليفورنيا عام 1970، بعد سنوات في اليابان، كرس ابن سان فرانسيسكو نفسه للدفاع باستماتة عن الطبيعة. ولإرساء فكره على أرض الواقع، اقتبس من معرفته العميقة بالفلسفات الشرقية مفهوماً مجهولاً لدى الغرب و هو كرما الكوكب البيئي. وتحت تأثيره أصبح شيخ الوقف، الكاتب والشاعر الأمريكي جاك كرواك (1922–1969)، صاحب رواية «المتسكعون السماويون» (حيث غاري سنايدر أحد أبطالها) و«الملائكة المتشردة»، يهتم أَدَبيًّا بالبوذية ابتداء من الخمسينيات ويجرب نفسه في التأمل. «انطلاقا من الحقيقتين النبيلتين الأوليين من حقائق البوذية اللتين بموجبهما تعتبر كل حياة معاناة مشروطة بجهل دورة الولادة والموت، اختار كرواك سلوكاً أخلاقياً مبنياً على العطف. وستقود فكرة الآنية التي يرتكز عليها الإدراك البوذي كرواك إلى اعتبار الوجود مثل «حلم انتهى آنفاً»»[74].

كان كرواك أكثر ميلاً لممارسة الهايكو منه إلى الممارسة التأملية، لذلك كان هذا الروحاني المحب لروح النكتة متأثراً غاية التأثر بالتقاليد اليابانية. ورغم تيهان «أبي البيتنيك» فقد اكتشف شعراً إهليجياً يسع فراغ العالم: «إن جانب الزن الذي كان له تأثير على كتابتي هو الزن الذي يتضمنه الهايكو، وكما سبق وقلت فإن هذه القصائد المكونة من ثلاثة أبيات وسبعة عشر مقطعاً صوتياً كتبت منذ مئات السنين من قِبل أشخاص

(74) مقدمة أ. أغوستني لكتاب الهايكو لجاك كرواك، باريس، لا طابل روند، 2006، ص. 13.

من طراز باشو وإيسي وشيكي وكذا من قِبل شيوخ متأخرين. يتميز الهايكو بجملة مركزة ورقيقة مصاحَبة بفكرة فجائية للذهن، وبحرية كبيرة ومتعة أكبر بحيث يترك الإنسان نفسه يفاجأ بقفز الفكر من الفرع إلى الطائر»[75]. أما آلان غنسبرغ (1926—1997)، العضو المؤسس للجيل الجديد فإنه اكتشف البوذية التيبتية خلال زيارة قام بها إلى الهند بحثاً عن مرشد روحي. وقد وجد فيها منهلاً آخر لتحرير الفكر من المواضعات الغربية. ولن يستعير كاتب «الأغلبية جالسون» من الزن سوى بعض التقنيات للتأمل.

وأخيراً وفيما يتعلق بموجة الزن هذه، وللتذكير بأهمية لاجدوى الجدية نشر الأمريكي روبيرت م. بيرسيغ Robert M. Pirsig (المولود سنة 1928) مؤلفه «رسالة في الزن وفي صيانة الدراجات النارية»، وهو عبارة عن رواية استبطانية غربية تأخذ الراوي وابنه وأصدقاءه في جولة طويلة على طرق الولايات المتحدة. ولقد عرف الكتاب عند صدوره سنة 1974 نجاحاً باهراً في أمريكا الشمالية.

وهذه المحاكاة الساخرة التي لا تحمل من الزن إلا العنوان تشكل لمحة هازئة للكتاب الأكثر رواجاً في ذلك الوقت وهو «الزن في فن الرماية» لأوجين هيريجيل Eugen Herrigel حيث غرابة الأطوار تليق بقدر شيخ حقيقي من شيوخ الزن.

(75) المرجع نفسه.

III – المبدعون بتأثير من الزن

وجد عدد من الفنانين الغربيين المعاصرين في الزن مصدر إلهام احتمالي مقابل طفوح مجتمع استهلاكي بلغ أوجه. فَتَح الفراغ آفاقا جديدة للفنانين التشكيلين الأمريكيين في فترة ما بعد الحرب. وكان ممثلو مدرسة نيويورك يطالبون بهذا البحث، فأعمالهم كانت تعكس موقفهم أكثر من أسلوبهم.

وهكذا اشتغل جاكسون (1903—1970) Jackson Pollock، رمز التعبيرية التجريدية وسيد الفوضى المرغوب فيها، على غياب الموضوع بوصفه كتابة في حد ذاتها.

أما مارك روتكو (1903—1970) Mark Rothko المتأثر بمبادئ الزن فقد رسم مساحات ملونة تأملية.

في لوحات سام فرانسيس (1923-1994) Sam Francis يظهر عالم مليء بالفراغ وذلك لأنه غيَّر اتجاه مسير لغته البصرية خلال زيارة لليابان سنة 1957. تأثر الفنان الفرنسي إيف كلين (1928—1962) Yves Klein تأثراً عميقا بالبوذية الزن. وقد اشتهر بلوحاته أحادية اللون وبأزرقه اللازوردي الزاهي. وكان ابن مدينة نيس بطلاً في الجودو وهو أول فرنسي يحصل على الحزام الأسود 4 دان. وذات يوم من أيام صيف 1952، قصد اليابان متوجهاً إلى يوكوهاما. التحق إيف كلين، إثر وصوله

إلى طوكيو، بمعهد كودوكان، أشهر مركز للجودو تأسس سنة 1882 من قبل رائد هذه الرياضة، الشيخ كانو جيغورو (1860 – 1938) وهناك درس ومارس لمدة خمسة عشر شهراً هذا من النوع من فنون القتال الذي لم يتناوله كرياضة بقدر ما اعتبره تجربة من المدارات الروحية.

وبعد الدخول في روح البوشيدو، أصبح الفنان، باتصال مع الزن، يستعمل الفراغ عنصراً أساسياً في أعماله. كما كان دائم الاعتناء بالحركة الصحيحة وشديد الوعي بأهمية التركيز وضبط النفس، لذلك حرص على وضع الإنسان في كلية كونية. وفي نظره، يوجد الجمال بشكل لامرئي كما أن اللون يجسد قوة روحية. ورغم الفضيحة التي سبَّبتها نماذجه النسائية العارية المطلية بلون أزرق ورغم عدم فهم معاصريه، فإنه قدم رؤية تجريبية ذات أهمية قصوى لممارسي الزن.

استأنس الملحّن الأمريكي جون كاج (1912–1992) John Cage بالبوذية الزن بمتابعة دروس دايزيتس تيتارو سوزوكي بجامعة كولومبيا في أواخر الأربعينيات. وقد حرّره هذا اللقاء من الاعتبارات الموسيقية الغربية التي كانت تهيمن على جانبي المحيط الأطلسي.

ومنذئذ، اعْتَبَرَ ابن لوس أنجلس، عبر ممارسة الزن، أن الفن ليس أقل ولا أكثر من مجرد تعبير عن الحياة. ولقد اهتم باعتباره شاعراً ومُنَظِّرا منفتحاً على مختلف جوانب الحكمة الشرقية، بتفكيك النظام أو ما

اصْطَلَح عليه أتباع الزن باللافكر. شكل نكران الذات و العلاقة الحميمة بين الفن و الطبيعة أصالة أعماله.

وفي مؤلفاته الموسيقية، كان يترك الأصوات تأتي على عِلاتها ويدرج الضجيج ويستقبل أصداء العالم. اتخذ جون كاج الصمت قاعدةً للبحث، وذلك ليتيح المجال للرنات لأن تتحقق، و لكي يتمكّن من التدخل دون البقاء في إطار مغلق. وبمعية صديقه وشريكه مصمم الرقص مرس كونينغهام Merce Cunningham أكبر مؤسسي فن رقص ما بعد الحداثة، كان يستعمل الصدفة وسيلة انضباط سلوكي ويرفض النوادر دوماً. وأبدع قطعاً بمدة غير محدّدة وفاءً لفلسفة الزن التي تمجِّد اللحظة. موسيقاه حياة وفراغ وصمت.

وعندما لا يؤلف الموسيقى كان يبدع سلسلة من الرسوم تسمى ريوانجي (1983)، مُسْتَلهَمة من روان –جي في كيوطو.

« في أعماله، لا تُرسم الحديقة بل يشار إليها بالعديد من الخطوط الدائرية حيث تذكّر الخطوط بسطور التمشيط الطقوسي على الحصى ورحلة الزائر البصرية. وهنا يرجع كاج إلى فكرة دورة الطبيعة، في عودتها الأبدية ولانهايتها وتكرارها وتغيرها، فيبلور المكان بتشكيل خمسة عشر حجراً في صورة واحدة. وهذا التصور المطلق ينبغي أن يقود المشاهد إلى التأمل»[76].

(76) و. ماسبير، الكتابة على الماء، جمالية جون كاج، باريس، هيرمان، 2005، ص. 101.

في مواجهة مع الشعور العميق بعدم الرضا المشترك لدى الجنس البشري، وَفَّقَ الشاعر والمغني الكندي ليونارد كوهين Leonard Cohen (المولود سنة 1934) بدون صراع بين إيمانه باليهودية (دينه الأصل) ومبادئ الزن. وبعد ممارسة الزن لسنوات عديدة، عُيِّنَ الكاتب والمؤلف الموسيقي، رمز الروك فولك، المخلص لمواضيع الحب والضياع والموت، راهباً بوذياً سنة 1966. ولأنه حساس حيال ثغرات العالم، فإنه قام بانتظام بخلوات في مركز الزن بجبل بالدي Baldy ، الذي أسسه شيخ مدرسة رنزاي جوشو ساساني والذي يقع بكاليفورنيا شرق لوس أنجلس.

إن هذه الرموز الفنية المبدعة لوعي جديد ليست هي فقط التي هتفت بتقاليد الزن أو صادفتها على طريق بحثها وممارستها.فمصمم الرقص والراقص الفرنسي موريس بيجار (1927—2007) Maurice Béjart، «الذي يعتقد فطرياً أنه من العاجل الملحّ تغيير الروح أكثر من الحرف»[77].

استأنس بالزازن على يد الشيخ تايزن ديشمارو، قبل أن يعتنق الإسلام الصوفي سنة 1973.

كما أن مفكرين أوروبيين آخرين مثل الفيلسوفين الألمانيين مارتن هايدغر (1889 — 1976) وكارل ياسبيرس (1883 — 1969) استمدا عناصر عديدة من الزن.

---

(77) د. فريتارد ، «موريس بيجار الرجل—الرقص»، جريدة لوموند، 2 نونبر، 1994.

IV- الزّنْ والتحليل النفســي

تسعى البوذية إلى تضميد جروح الإنسان. إن طريق الخلاص التي درسها غوتاما تمر عبر مراقبة الانفعالات المكبوتة في اللاوعي وتفحص جذور المخاوف والأفعال والرغبات والآلام التي تترتَّب على ذلك. أما التحليل النفسي بوصفه منهج تقصي الاضطرابات النفسية ومعالجتها، فإنه يهدف إلى جعل المريض يتعايش مع مرضه، أو على الأقل على التآلف معه، وإذا حدث وحصل الشفاء، فذلك يدعو للاغتباط. ومن غير أن نخلط بين النظامين في تاريخهما أو وظيفتهما، فإنهما يُبرزان عن طريق اللغة وخلافها، وخصوصاً عبر ملاحظة وقائع الوجود، عن صراعات موضوعها الإنسان المتألم والإنسان المجروح. يُمَكِّنُ الخلاص لدى ممارسي الزن، وعموماً لدى البوذيين، من ضمان الهناء. أما لدى أتباع الفكر الفرويدي، فإن أخذ الألم بالاعتبار عبر انكشاف اللاوعي هو الأرجح، وكلاهما يقعّد عمله على قاعدة التحرير، وذلك في اتفاق مشترك حول الإقرار بطبيعة الواقع المشوهة.

إن العلاقة بين المعالج والخاضع للعلاج النفسي، رغم أن المقاربات ليست مشتركة، تذكِّر بمفهوم الإنصات و بشكل ما بالصلة بين المريد والشيخ. لكن هل الساتوري هو جعل اللاشعور شعوراً؟

يعتبر المحلل النفسي وطبيب الأمراض العصبية النمساوي سيغموند

فرويد (1856 – 1939)، الذي أحدث ثورة في علم النفس السريري باكتشافه منهج التحليل النفسي، أن ما يهم قبل كل شيء هو الممارسة والتجربة حيث يكون المجرب طرفاً مشاركاً فاعلاً.

ولقد كان مؤسس منهج التحليل النفسي «يتصور الإنسان كائناً أنانياً بالأساس، مرتبطاً بأشباهه بالضرورة المشتركة لإشباع الرغبات الغريزية. كان فرويد يرى أن اللذة هي ارتخاء التوتر وليس خبرة الفرح، لذا نعت بكونه رجلاً ممزقاً بين عقله ومشاعره»[78]. كانت للطبيب والمحلل النفسي جاك لاكان (1901–1981) Jacques Lacan حِكَم جديدة بشيوخ الكوان من نوع: «لو كان هناك محلل نفسي، لعُرِفَ ذلك...»[79].

وقيل إن العالم الأنثروبولوجي والإثنولوجي كلود ليفي – ستراوس وصف لاكان بـ«شيخ الزن العلماني». طرح مؤسس مدرسة باريس الفرويدية،وبتخليه عن تعريف ماهية التحليل النفسي، بلا تحفظ سؤال الرغبة: «فلننطلق، إذا سمحتم، مما أخبرنا به لاكان في افتتاح ندوته. الكتاب الأول: كتابات فرويد التقنية: يقطع الأستاذ الصمت بأي شيء (بأي صمت يتعلق الأمر؟ إنه الصمت الذي نمارسه عادة على اللاوعي. هذا الصمت الكبير هو كبت الوعي)... يقطع الأستاذ هذا الصمت بأي شيء: تهكم أو ركلة... وهذه الطريقة نفسها هي التي يتبع الشيخ

---

(78) إ. فروم، البوذية الزن والتحليل النفسي، باريس، المنشورات الجامعية الفرنسية، 1971، ص. 94.

(79) ذكر ج. نوجيكور خيبة الهو ، المجلة الثقافية، عدد 159/160، أبريل/نيسان 1980، ص. 46.

البوذي حسب تقنية الزن في البحث عن المعنى. ويتعيَّن على المريدين أنفسهم إيجاد الجواب لأسئلتهم الخاصة (والمريد والمحلل هنا على حدّ سواء)، فالأستاذ لا يُدَرِّس بتحذْلق وإنما يأتي بالجواب عندما يكون الطلبة على وشك العثور عليه. وهذا التعليم هو رَفْضٌ لأي نظام إذ يكتشف فكراً في حالة حركة، جاهزاً للنظام مع ذلك، لأنه يقدّم بالضرورة وجهاً جازماً) وهذا الوجه الجازم هو المظهر الذي يَسْهل تقليده في الزن مثلما في التحليل النفسي»[80].

على طريق الوحدة الداخلية التلقيني، يرى عالم النفس والمحلل السويسري كارل غوستاف يونغ (1875 – 1961) أن اللاوعي الجماعي يلعب دوراً هاماً في هذا المجال. كما أنه يرجع إلى أدب الزن وغالباً ما يشير إليه رغم أن مقاربته تختلف جوهرياً.

في منظور ابن القسِ هذا: «مهما بلغت عظمة البوذية الزن، لا يمكن للإنسان الغربي أن يستعملها لفهم سيرورة التحولات الدينية؛ فالغرب يفتقر إلى الشروط الروحية الضرورية. مَن لدينا سيضع ثقة مطلقة بشيخ أعلى وبطرائقه الغامضة ؟!» [81].

يعترف يونغ، باعتباره طبيباً له شواغل أخلاقية ودينية، بأن تعاليم

(80) مداخلة ج. مسات، 27 يناير/كانون الثاني، 2007 بعنوان: «أوديب بملابس جديدة»، منشورات موقع www.psychanalyse.com.

(81) يونغ، الروح والحياة، باريس، بوشي/شاستيل، 1963، ص. 376..

البوذية زودته بطاقة كبيرة، لكنه لم ينخرط فيها. في إطار ندوة حول البوذية الزن والتحليل النفسي عُقدت في المكسيك، قابل عالم نفسي آخر إيريش فروم (1900—1980) Erich Fromm بين الأسلوبين الفكريين وأصدر كتاباً مشتركاً مع دايزتس تيتارو سوزوكي وريشارد دومارتينو Richard de Martino يكشف عن أوجه التشابه والصلات المتبادلة وكذا حدود المقارنة خصوصاً فيما يتعلق بالمناهج التي تختلف جذرياً. وفيه يلفت الانتباه إلى أن الزن والتحليل النفسي «لا يسعيان إلى جعل الإنسان كائناً فاضلاً بإلغاء «الرغبات الرديئة»، وإنما يتوقعان أن تتلاشى هذه «الرغبات الرديئة»، في الضوء الحار لوعي موسع»[82].

V – الزن والسياسة

خلال العصور الوسطى في اليابان كانت أديرة كاماكورا مقر الحكم الشفوي حينئذ، وأديرة كيوطو، مقر الحاشية الإمبريالية، قريبة من السلطة الدهرية.

وكانت جماعات بوذية منتسبة لأسياد الحرب تقوم بتسليح نفسها دفاعاً عن سلطتها وحفاظاً على وضعها. ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، ساهم عدد من الرهبان الزن اليابانيين في الدعاية العسكرية ضاربين عرض الحائط بمبادئ البوذية الأساسية.

(82) إ. فروم البوذية الزن والتحليل النفسي، باريس، المنشورات الجامعية الفرنسية، 1971، ص. 139.

وباسم الهوية اليابانية والمصلحة الوطنية، انخرطت جماعات الزن الكبرى، شأنها شأن كل مدارس البلاد البوذية، في آلة الحرب الإمبريالية. وهذا التواطؤ نادراً ما يذكر في تاريخ الزن. يروي كِتاب بريان فيكتوريا Brian Victoria[83].

هذه الحلقة التي تتنكّر لمبادئ الإحسان و الشفقة. يندّد مُؤلِّفُه الأكاديمي الراهب الزن من مدرسة سوطو منذ 1964 بالتجاوزات الوطنية لمتديّنين يحرضون على الحرب. وهو بذلك يخدش، في سياق تاريخي معين، الصورة المقدسة لشيوخ رفيعي القدر من أمثال شاكو سويين، كودو ساواكي، دايزيتس تيتارو سوزوكي.

في السياق نفسه، يشير جاك بروس في فصل حول«الزن والسلطة» إلى أن «البوذية أصبحت أقوى دعامة للنزعة العسكرية اليابانية التي غزت العالم الآسيوي، باسم مبدأ ضرورة مساندة كل حرب قامت من أجل «قضية عادلة»، وباسم مبدأ «إيساتسو تاشو» القائم على «الطاقة الطبية» التي ترتكز على «قتل شخص واحد ليعيش الكثير» . ولا شك أن هذا النوع من الإفتاء هو الذي جعل د.سوزوكي يقول إنه ينبغي «أن تعاقب الصين لتتقدم الإنسانية»[84].

ورغم أن أقلية معارضة من المتديّنين رفضت المشاركة في هذا

(83) ب. فيكتوريا، الزن في حرب 1945-1868، باريس، لوسوي، 2001.

(84) ج. بوس عالم الزن، التاريخ،الروحانية والحضارة، باريس ألبان ميشيل، 2003، ص. 218.

الانحراف الدامي، خاض جل الرهبان الزن الحرب؛ وككل اليابانيين المجندين، لم يطلب منهم رأيهم بل خضعوا للتلقين المدبر من قِبل السلطات أو انخرطوا في الإيديولوجيات المحاربة، تحت ضغط المجتمع حيث الرضوخ إلى الجماعة أقوى من الفعل الفردي. بالموازاة مع ذلك في أوائل القرن العشرين، وعلى درب الفقراء والمعوزين، رأى عدد من المثقفين والمتدينين نقاط التقاء بين مثالية الماركسية ومذهب الصحوة، من بينهم الراهب الزن الياباني من مدرسة سوطو أوشياما غودو (1874 – 1911) الذي اتُّهِمَ بالخيانة العظمى بسبب قناعته المضادة للتسلط العسكري خلال الحرب الروسيةاليابانية، وأعدم مع مناضلين آخرين من قِبل السلطات الإمبريالية.

يتقصى كتاب فيكور وفيكتوريا تريموندي Trimondi «هتلر–بوذا–كرشنا :تحالف غريب من الرايخ الثالث حتى اليوم»(85). الروابط بين الوطنية الاشتراكية والبوذية وكذا الفلسفة الزن عن طريق أوجين هيريجيل Eugen Herrigel وعالم النفس والفيلسوف الألماني كارلفرييد غراف دوركهايم (1896–1988) Karlfried Graf Dürkheim.

ولأن دوركهايم عاش فترة طويلة في اليابان، فقد أخذ بعين الاعتبار في عمله حول التأمل، ليس فحسب الروحانية المسيحية، بل أيضاً طريقة الزن باعتبارها ممارسة تؤدي لتجربة « الكائن الجوهري». وبعد عودته

(85)صدر في أوبيروكز فيولاغ، فيينا، 2002.

إلى ألمانيا عقب الحرب العالمية الثانية، أصبح يدرّس الزن. وإذا كان أغلبية أتباع الزن يحبذون الاختلاء، فإن البعض اختار الالتزام السياسي والاجتماعي انسجاماً مع الأهمية التي يحظى بها مبدأ الرأفة في التقليد الماهاياني. فالبقاء في جهل بتصرفات الحكام يبدو لبعض الممارسين نفياً لمبدأ الإيثار الذي يدعو إليه الماهايانيون وبشكل أعم تقليلاً من شأن الترابط بين الظواهر، وهو أحد العناصر المؤسسة للفكر البوذي.

ويعتبر تيش نهات هانه الممثل الأكبر لهذا التوجه. ولعله ألهم الحركات الداعية إلى السلام والحركات البيئية والأعمال الاجتماعية التي بدأت سنة 1960. وهذه البوذية الملتزمة انتشرت خصوصاً في الولايات المتحدة للعمل على توعية الرأي العام حول لا جدوى الحرب.

في الإطار نفسه، نادى سلف مناصري البيئة غاري سنايدر بالعصيان المدني مثل مواطنه روبيرت إيتكن Robert Aitken (المولود سنة 1917) الذي اكتشف الزن عندما كان معتقلاً من قبل اليابانيين في معسكر للأسرى خلال الحرب العالمية الثانية. فاتبع تعليمه في مدرسة جديدة وهي السامبو كيودان («مجتمع الكنور الثلاثة») التي أنشئت في منتصف القرن العشرين على يد ديوان هارادا (1871—1961) وهاكون ياسوتاني (1885—1973)، والتي تميزت بالتوفيق بين تقاليد السوطو والرنزاي ضمن ممارسة لادينية. وقد قاوم روبيرت إيتكن انتشار الأسلحة النووية

وناهض حرب فيتنام بحيث كان السباق في هذا المجال.

أما برناد غلاسمان Bernard Glassman فقد اشْتُهِر بالتزامه بالنضال في العالم الراهن وقد تعلَّم على يد الشيخ في مدرسة سوطو تايزن مايزومي (1931–1995) وأسس مركز زن لوس أنجلس سنة 1967. كما سعى إلى وضع العمل الاجتماعي في قلب ممارسة الزن. تميز برنادر غلسمان أو «بيرني» كما يحلو لناس أن يسموه، بقربه الشديد من الفقراء والمشردين ومرضى الإيدز، لذلك أنشأ، منظمة خيرية غير دينية بنيويورك (المجتمع صانع السلام) تهدف للعمل من أجل السلام ومكافحة المظالم.

VI – الزّنْ في السينمـا

تعكس الرواية السينمائية، باعتبارها مرآة للخيال، الرغبات والآلام. وفي وهم الحركة من خلال عرض متوال لصور ثابتة، تدعو السينما، من حيث هي فن غير صادق تماماً وغير كاذب تماماً، في كثير من الأحيان إلى التيه ولكن أيضاً أحياناً إلى العثور على النفس. وقد أثارت السينما، عبر بعض الأعمال الآتية من آسيا، اهتمام الغرب بالتأمل البوذي.

في بداية هذا «الفن الحديث»، كان أول فيلم هندي صامت وُزع في الخارج يحكي عن طفولة بوذا وحياته.

كان عنوانه نور آسيا (1925) لمخرجه فرانز أوستن (1876–1956) Franz Osten، وهيمانسو راي (1892–1940) Himansu Rai الذي

لعب دور البطولة مجسّدا شخصية سيد هارتا غوتاما عبر تكييف قصيدة طويلة لسير إروين أرنولد (1832—1904) Erwin Arnold نشرت سنة 1879.

وقد لاقى هذا الإنتاج المشترك بين ألمانيا والهند، والذي كلف أموالاً باهظة، إقبالاً منقطع النظير في أوروبا. هل كان ذلك بسبب مناظره الأسطورية؟ أم لأنه فيلم أجنبي؟ أم لتمثيله المذهل لرحلة روحية؟ على أي حال، وحدهم مشاهدو القارة العجوز من خصوه بهذه الحفاوة، أما أختصاصيو الحضارات الهندية فقد اعتبروه متطرفاً.

بيد أن الجمهور الأمريكي المشبع بمنتجات الاستديوهات الهوليوديّة، فقد قاطع هذه القصة الآتية من الأقاصي، في حين أن الجمهور الهندي الذي داعبته هذه القصة منذ آلاف السنين، لم يرَ في هذا الإخراج سوى فيلم غريب عن ثقافته. وستمر بضعة عقود قبل أن تعرض الشاشة الكبيرة بعض المبادئ المستمدة من الزن. وهكذا كشف فيلم «لمسة من الزن» للمخرج الصيني كينغ هو (1931—1997) للمشاركين في مهرجان كان سنة 1975 عن مقاربة الزن في فنون القتال. تظهر حبكة الفيلم، في عهد آل مينغ بالصين، ثلاثة أبطال: أديب معوق باعتباراته الفكرية، وراهب بارع في فنون القتال بفضل تجرده وقوته الروحية، وامرأة شابة مجبولة بالانتقام تُقْدِمُ على سلسلة من المعارك.

ومن الغريب أن هذه المغامرة تتيح ضمنياً إدراك جوهر التعاليم البوذية. ويعد فيلم «شيخ الزن» في تاريخ صناعة السينما الصينية (1994)، للمخرج براندي يوين تشون–يوينغ تحفة نادرة. وهو يحكي، عبر الكثير من المؤثرات الخاصة ومَشاهدِ تَتَابُعِ الأحداث، عن حياة بوديدهارها الأسطورية. ولقد نجح هذا الفيلم الروائي المنتج في هونغ كونغ في تعريف هواة أفلام الفروسية بروح أصول الزن.

استمدت صناعة السينما الكورية الجنوبية، أكثر من الأخريات وبأصالة وسداد، إلهامها من موضوع التأمل الروحي. وبعيداً عن كل سيناريوهات مفتعلة، لا يفرض عمل المخرج السينمائي الكوري باي يونغ كيون (المولود سنة 1951) على المشاهد أي شيء. ولقد فاز هذا الفيلم «لماذا ذهب بوذيدهارما إلى الشرق؟»، الذي أخرج سنة 1989 بالنمر الذهبي في مهرجان «لوكارنو». يدعو هذا الإنجاز الأول ببساطة إلى رحلة تأملية عبر تجارب متتالية. «الذهاب هو الإياب، والإياب هو الذهاب». ففي صومعة صغيرة في أقاصي الجبال، يحاول ثلاثة أجيال من الرهبان النفاذ إلى الجوهر الحقيقي للوجود: «في الأصل، ليس هناك شيء، لا بداية ولا نهاية». يقترح شيخ من شيوخ الزن وصل إلى حالة التجريد التام على مريده المعذب بترك عائلته، هذا الكوان: «عندما يمتلئ قمر الروح في الماء، إلى أين يذهب بطلي؟».

ويكتشف راهب شاب يتيم، حزين على أم لا يتذكرها، قضية الحياة والموت. ثم يهيم الرجال على وجوههم باحثين عن الخلاص... كبقرات فارة من الحظيرة. تتناول هذه الرواية السينمائية، بزهدها وجماليتها ، الحياة كحكاية فلسفية عبر حوارات رزينة. ويساهم الماء والتراب والهواء والنار في تناغم العالم. لهذا يُعتبر هذا الفيلم مثلاً حقيقياً لتعاليم البوذية في تقليد الزن، فالنور والحقيقة اللذان يغمرانه يجعلان منه نشيدا فعالاً للحياة. وفي نظر مخرجه، الشاعر أيضاً والأستاذ الجامعي بكلية الفنون الجميلة بتايغو: «ليس الزن لاهوتا متعلقا بوحي خارق ومن الصعب أن نكتشف فيه مظهر عقيدة دينية (...). وقد يكون أحياناً غير منطقي وغير عقلاني، إذ يستعْصي على فهمنا، لكن هذا لا يعني أنه لدُني خالص»[86].

في حكاية معاصرة أخرى،«ربيع، صيف، خريف، شتاء... وربيع» (2003)، يصور الكوري كيم كيدوك (المولود سنة 1960) تأثير الكونفوشيوسية والمسيحية على تقليد البوذية في شبه الجزيرة مسقط رأسه. وتجدر الإشارة أن كيم كيدوك ليس بوذياً ولكنه كأغلبية مواطنيه مسيحي. يصور الفيلم على هامش العالم الحديث كيف تصطدم قيم التأمل، على مدى مواسم الوجود، في مرفأ رهباني (معبد صغير في جزيرة وسط بحيرة)، بقوى التعلُّق والرغبات والغيرة. يمكن للبراءة أن

(86) باي يونغ كيون الثقافية الكورية، عدد 23، أبريل، 1990، ص. 23.

تتسع للعنف، لكن هناك واقع الشيء المعاش وحرية الاختيار. وحسب المخرج، «فالماء وحده يتيح تصوير هذه الحرية وتغيير التوجهات التي تحدثها الحياة. إن الأشخاص يشبهون هذه الأسماك التي وضعتها في الفيلم، فهم محاصرون في بركة أو أحرار في الطبيعة. إنهم دوماً مطوقون داخل مشهد كوني. اللامتناهي الصغر داخل اللامتناهي الكبر»[87].

اكتشف الغرب المخرج الكوري النخبوي الكبير ذا الأسلوب اللازمني إم كوون تايك (المولود سنة 1936) بعرضه في مهرجان برلين لفيلم ماندالا (1981). يروي هذا العمل، عن طريق دراما وجودية مُؤَطرة بالضياع، علاقة صداقة بين راهبين يختلف سلوكهما جذرياً. أما في فيلمه «أعلى، أعلى أك» (1989) فيُصوِّر هذا المؤلف الإنساني والمثالي آلام الكائنات. ينغمر إم كوون تايك في الشكل الذي تُمارس به البوذية اليوم وذلك على خلفية الظلم والنقد.

ويبرهن مخرج الفيلم مرة أخرى، من خلال حبكةٍ أساسها تلميذة طُردت من مؤسستها التربوية فلجأت إلى مجتمع رهباني لتصبح راهبة، أن الطرق يمكن أن تتقابل وأن تتقاطع. في الطرف الآخر من العالم، يعد فيلم بوذا بوينوس إيريس (2005) للمخرج الأرجنتيني الراهب دييغو رافيكاس Diego Rafecas إنجازاً مثيراً للدهشة. يبرز هذا العمل عثرات رجل تعيس يبحث عن المطلق. ويركز المخرج الكاميرا على الفوارق

(87) حوار أجراه جون لوك دوان مع كيم كي -دولي، جريدة لو موند، 14 أبريل، 2004.

الاجتماعية في فيلمه الأول هذا، ولكن أيضاً على ممارسة الزازن في معبد حيث يسعى شاب إلى الهروب من متاهات الحياة الحضرية والمادية، غير أن البحث يولّد أيضاً أوهاماً جديدة...

VII– هل هناك زنْ ماكروبيوتي؟

لا يستمد هذا الغذاء النباتي، الذي ينعت خطأً بالزن بتاتاً نظرياته من ممارسات البوذية الزن. فقد اشْتُقَّ مصطلح الماكروبيوتيك من كلمتين إغريقيتين هما «ماكروس» وتعني كبير و«بيوس» أي الحياة. اكتسب هذا المفهوم أهمية كبرى على يد الياباني نواتي ساكورازوا المدعو جورج أوشاوا (1762–1836م) الذي استوحاه من كتابات الطبيب الألماني كريستوف ويلهيم هوفلاند (1762–1836م). ولقد أوصى هذا الأخير بتوازن غذائي وسلوك حياتي سليم وبصحة جسدية باعتبار أن الوقاية أحسن من العلاج. كَيَّفَ المؤلف الياباني نظريات الطبيب الرائد في مجال التوازن الطبيعي وذلك بإدخال تعاليم الين واليانغ، أي مبدأي الطبيعة المتقابلين والمتكاملين اللذين يُدرسان من قِبل شيوخ الطاوية.

وتُعْتَبر الماكروبيوتك، حسب رأيه، «فن التغذية في انسجام مع قوانين الكون... لتحقيق السعادة عن طريق السلام والصحة». ابتداء من سنة 1975، أصبح أوشاوا يدرس أطروحاته بفرنسا وينفي الوسائل العلاجية التي تدعو إلى التخلي عن الأدوية والعمليات الجراحية وكذا

المعالجة بالراحة. كما نشر مؤلفاً تحت عنوان الزن النباتي أو فن تجدد الشباب وطول العمر، ومن ثم ظهور التباس في غير محله من جرَّاء التسمية .

وخلاصة القول، إذا كان تأثير تقاليد الزن في العالم المعاصر ملموساً في عدة مجالات، فإنه من الصعب إحصاء ممارسي الزن بالتحديد وذلك مهما كانت القارات. فاليابانيون غالباً ما يصرحون بأنهم شانتووِيون وبوذيون في الوقت نفسه. ومع ذلك، وحسب إحصائيات الوكالة الثقافية اليابانية (سنة 2000)، هناك 3350 ألف ممارس للزن. وفي الغرب، يمارس بعض الرهبان المُنتَمون للتقليد المسيحي الزن.

هل يكفي مجرد التأمل في وضعية الزازن أو الانخراط في الدوجو ليكون المرء ممارساً للزن ومؤمناً به؟

خاتمـــــة

وماذا عن المريد؟

«الحرية الداخلية هي الفتح الوحيد الذي يستحق أن نخاطر بأنفسنا من أجله في هذا "العالم الخادع"»[88].

وراء صرامة أي شيخ مُرَبٍّ، يحمل الزن رؤية روحانية ومقدسة للوجود. فرؤية الازدواجية الذاتية ومراقبة العلاقات الشخصية تسمح عبر اشتغال داخلي على النفس من اختبار الكائن بشكل مختلف. إذا «تطوع المريد لتأمل نصوص «مقدسة»، يقول له الشيخ:«لا تترك السوترا تهزّك، بل هُزَّ أنت نفسُك السوترا»، وإذا تطوع للعمل على الفراغ الفكري، يبيّن له الشيخ أن ذلك ليس سوى انتحار بطيء، وإذا تطوع لعمل فكري شاق ودقيق، يعلن له الشيخ: «التفكير والمعرفة الاستدلالية لا يؤديان إلى شيء . إنهما كمصباح وسط النهار لا ضوء يخرج منه. وعندما يتوسل المريد التعيس أخيراً وبتواضع للشيخ بصيصاً من نور حول «سرّ» الزن، يجيب الشيخ: «أن نتخيل أن الزن لغز غريب، ذلك هو الخطأ الفادح الذي يقع فيه الكثيرون... ليس علينا تفادي التناقضات بل عيشُها»[89].

---

(88) ن. بوفيير ، مذكرات أران وأماكن أخرى أوراق الطريق، باريس، بايو، 1993، ص. 9.

(89) هـ. بونوات، المذهب الأكبر. تأملات في البوذية الزن، باريس، دائرة الكتاب، 1951، ص.204.

في عالم يتغير باستمرار تستحث مقاربة شيوخ الزن الإبداعية عدداً متزايداً من الرجال والنساء في بحثهم عن العِبَر. يشارك المزيد من الأشخاص بمَنْ فيهم اليابانيون في حلقات دراسية واجتماعات تحفيزية تسمى «الزن للتوصل إلى السلام والسيطرة على الانفعالات»... أن يتمكن الإنسان من نسيان نفسه ويعمل بوعي كامل وتكون لديه طاقة الفعل... هذا ما يبدو ثورياً في مجتمعاتنا المعاصرة. لا يكفل الزن شيئاً لأنه متمرد على أي منطق، وعلى أي حال، لا ينبغي للمريدين محاولة تقليد الشيخ وإنما زحزحة بديهياتهم الخاصة. فبالسعي إلى تمام التجربة، دون الاكتفاء أبداً بتحليل فكري، يمكن للمريدين التوصّل إلى العيش بمقاربة مباشرة و حدْسية.

يبدو الزن عبارة عن مسير يوفق بين الأضداد لا عقيدةً. ولا أحد يمكن أن يتخطى عتبته بدلاً عن المريد، حتى أكبر الشيوخ. وحدها طريق القلب تصل إلى القلب.

ملحقـــــات

1. تاريخ بياني:

– 563 ؟ ق. م: ولادة سيدهارتا غوتاما، البوذا التاريخي[90] .

– 463؟ ق. م: وفاة بوذا في سن يناهز الثمانين.

– 520 :تأسيس مدرسة التأمل شان من قبل بوذيدهارما.

– 522: دخول البوذية إلى اليابان حسب الأخبار اليابانية «نهون شوكي».

– 630: الراهب الكوري بومنغ يدخِل الزن إلى مملكة سيلاّ.

– حوالي 1119: تأسيس مدرسة رنزاي في اليابان على يد إيزاي.

– 1227: تأسيس مدرسة الزن سوطو في اليابان على يد دوجين.

– 1654: تأسيس مدرسة الزن أوباكو على يد إنجين.

– 1868: السلطة الإمبريالية تفرض الشنتو ديناً للدولة في محاولة لاستئصال البوذية في اليابان.

– 1967 : دخول الزن سوطو إلى أوروبا على يد الشيخ تايزن ديشيمارو.

---

(90) السنوات المعتمدة عموماً في الغرب.

2. جدول النسب الرسمي لسلالة البطاركة:

- بوذا سيد هارتا غوتاما
- ماهاكاشيابا
- أناندا
- شانافاسا
- أوباغوبتا
- دهريتكا
- ميشاكا
- بوذا- ناندي
- بوذا مترا
- بهيكشو بارشفا
- بونيا-ياشاس
- أشفاغوشا
- بهيكشو كابيمالا
- ناغارجورنا
- كانا ديفا
- أريا راحولتا
- سمغها-ناندي

- سمغها–ياشاس
- كوماترا
- جاياتا
- فاسو باندهو
- مانورا
- كلينا ياشاس
- بهيكشو سيمها
- فاشاسيتا
- بونيا ميرا
- براجنا تارا

بوذيدهارما (470م - 543م)

3.لائحة البطاركة الستة في الصين:

الاسم الصيني	الاسم الياباني
بوذيدهارما	بوذاي داروما (470م - 543م)
هويي- كو	إيكا (487–593)
سنغ–تسان	سوسان (توفي سنة 606)
تاو–هسين	دوشين (580–651)
هونغ جين	غونين (601–674)
هويي–ننغ	إينو (638–713)

معجـــــم

بوذيساتفا : كائن من الصحوة يعمل من أجل خير الآخرين.

بوساتسو: بوذيساتفا باليابانية.

بو شيدو: طريق المقاتل.

شادو: .طريق الشاي.

دهارما: قانون أساسي ينسب إلى بوذا التاريخي، سيدهارتا غوتاما، المذهب.

دوجو: من دو (تاوو)، الطريق، وجو(المكان)، القاعة التي يمارس فيها الزازن.

المركبة الكبرى: (انظر ماهايانا).

هايكو: قصيدة من ثلاثة أبيات، تتكون من سبعة عشر مقطعاً صوتياً.

هينايانا: تيار بوذي تقليدي يرتكز على قانون وحكم المذهب الأصلي كما نادى به بوذا.

إيكيبانا: ترتيب الزهور.

كودو: طريق الزهور.

كارما: فعل، بالتعميم هي قانون السببية .تسلسل الأسباب والنتائج التي تخلق ولادات متعاقبة.

كين-هين: سير تأملي بين حصتين من الزازن.

كوان:لغز أو كلمة متناقضة تُقْتَرح كموضوع للتأمل.

كودو:طريق البخور.

كيوساكو:عصا خشبية في يد الشيخ يُسَدِّد بها ضربة على كتف المريدين لإصلاح القعْدة وفك التوتّرات.

كيودو: طريق القوْس.

هاهايانا:تيار بوذي إصلاحي يركز على الرأفة وخلاص البشرية وعلى مُثُل بوديساتفا

نيرفانا: فناء الأهواء وأسبابها، اختفاء المشاعر والانفعالات، الخلاص من السامسارا.

أوباكو: مدرسة للزن باليابان.

المركبة الصغرى: (انظر هنايانا).

بو-سال: بوديساتفا بالكورية.

بوسا: بوديساتفا بالصينية.

رنزاي: مدرسة للزن في اليابان، لينجي بالصينية

روشي: شيخ موقّر.

سمسارا: دورة أنواع الوجود المشروطة بقانون كارما

سانغا: جماعة بوذية

ساتوري: مصلح ياباني يعني تجربة «الصحْوة» أي، حسب تقليد الزن، إدراك الطبيعة الداخلية للإنسان.

سيسشين: تركيز القلب والروح، مرحلة التأمل المكثف.

جوشين ريوري: مطبخ نباتي

شو: مدرسة أو طائفة دينية

سوترا: كلمات منسوبة إلى بوذا أو لأتباعه المباشرين

تيرافادا: (انظر هينايانا).

فجريانا: فرع باطني لماهايانا يقوم على ممارسات طقوسية .

المركبة الماسية: (انظر فجريانا).

زازن: التربع للتأمل بظهر مستقيم.

زنغا: الرسم الزن.

ثبت مختصر بالمراجع

- *Berval R. Présence duy Boudhisme, Paris, Gallimard, 1987.*
- *Brosse J., Zen et Occident, Paris, Albin Michel, 1992.*
- *Brosse J., L'univers du Zen, histoire, spiritualité et civilisation, Paris, Albin Michel, 2003.*
- *Deshimaru T., L'esprit du ch'an. Aux sources chinoises du Zen, Paris, Le Seuil, 2004.*
- *Dôgen, La vraie Lai. Trésor de l'œil, textes choisis de Shôbôngenzô, Paris, Le Seuil, 2004.*
- *Dôgen, Instructions au cuisinier zen, textes choisis et traduits du japonais, Paris, le Promeneur, 1994.*
- *Grosrey A., Le Grand livre du bouddhisme, Paris, Albin Michel, 2007.*
- *Herrigel E., Le Zen dans l'art chevaleresque du tir à l'arc, Paris, Devrey, 2003.*
- *Kolm S.-C., Le Bonheur-liberté, bouddhisme profond et modernité, Paris, PUF, 1994.*
- *Rommeluère E., Guide du zen, Paris, Le livre de poche, 1997.*
- *Rommeluère E., Les Bouddhas naissent dans le feu, Paris, Le Seuil, 2007.*
- *Seung Sahn, Cendres sur le Bouddha, Paris, Le Seuil, 2002.*
- *Suzuki Daieseltz Teitaro, Fromm E., Martino R. de, Bouddhisme zen et psychanalyse, Paris, PUF, 1986.*
- *Suzuki Shunryu, Esprit zen, esprit neuf, Paris, Le Seuil, 1977.*
- *Thieh Nhat Hanh, Clés pour le zen. Un guide pour la pratique du zen, Paris, J., -C., Lattès, 1999.*
- *Victoria B., Le zen en guerre, 1868-1945, Le Seuil, 2001.*

على الإنترنت

ثمة العديد من مواقع الإنترنت تدَّعي الانتساب إلى طريقة الزن. لذا فإن البحث في الشبكة العنكبوتية يتطلب الحيطة والحذر.

www.zen–occidental.net

www.zen–azi.org

www.villagedes pruniers.net

wwww.bouddhaline.net

www.ciolek.com (بالإنجليزية)

فلسفة الزن.. رحلة في عالم الحكمة

إذا كانت كلمة "زنّ" قد أصبحت شائعة في المعجم العالمي فإن معناها لا يزال غامضاً في أذهان الكثيرين.

تعني كلمة "زِنّ" التأمل والتفكُّر، وهي ممارسة نابعة من بلاد الهند. وقد انتشرت في البلدان المجاورة لتصل إلى اليابان في صيغة "الزّنّ". وتدعو هذه الممارسة إلى الوعي بالذات تبعاً لتعاليم متواترة تتجاوز ما يقوله الشيخ لمريده من كلمات. إنها ممارسة تمر من قلب إلى آخر. وبالرغم من مفارقات الزّنّ وتعقدها فإنه ليس فيها شيء ملغز، فطريق "الدّو" يبدأ من حيث نحن موجودون.

يتناول هذا الكتاب تطور هذه الديانة وتحولاتها سواء في الصين أو اليابان أو كوريا، ويعدد شخصياتها النابغة وطقوسها وطرائفها، كما يحلل انتشارها في البلدان الأوروبية، وأثرها على الفنون والموسيقى. وهو ما يجعل منه كتاباً جامعاً وممتعاً عن ممارسة عقَدية تستحق الاطلاع.



9 789948 018490

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

كلمة
KALIMA

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة